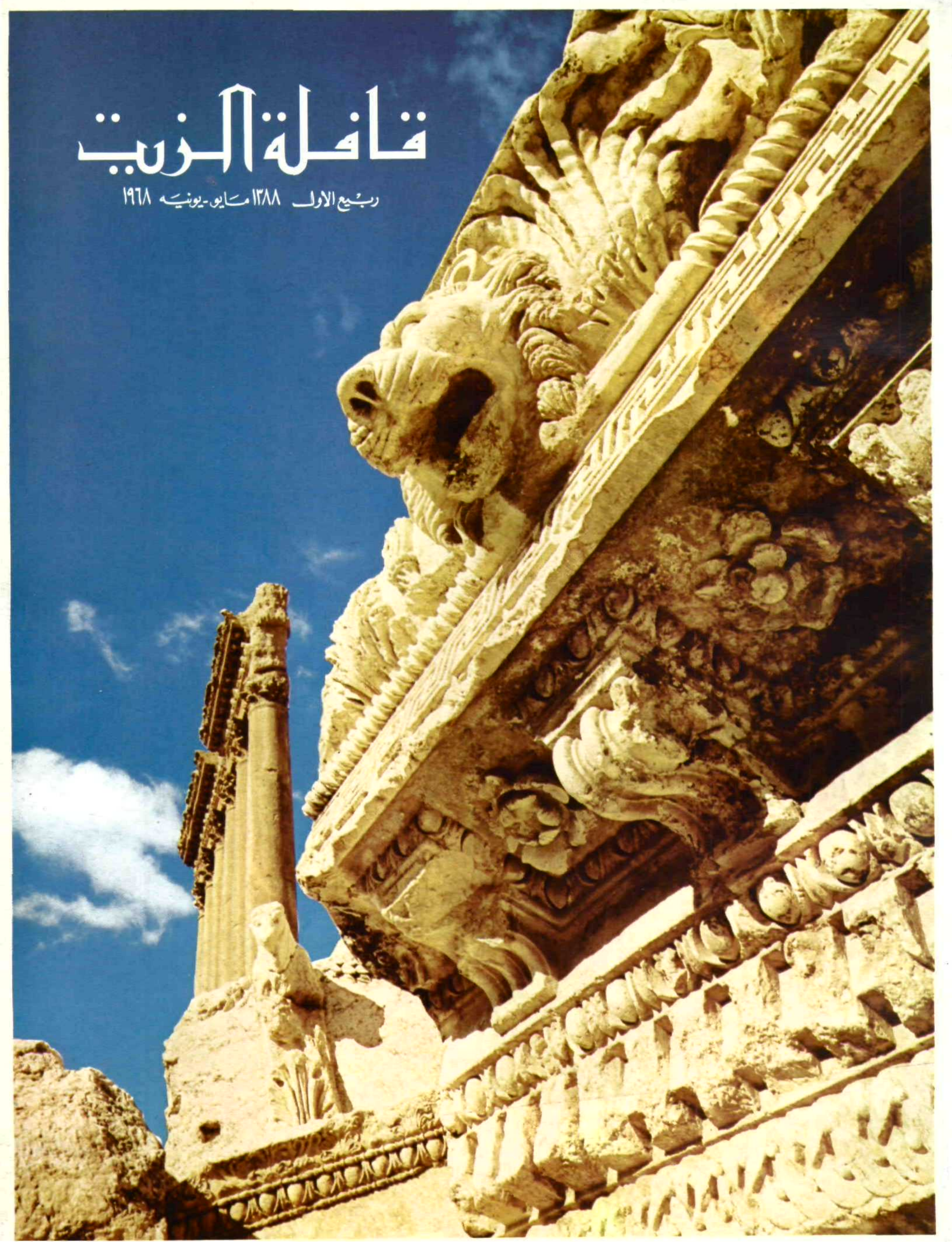

قافلة الزيت
ربيع الاول ١٣٨٨ مايو-يونيه ١٩٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الثالث المجلد السادس عشر

تصدر شهرياً عن :
شركة الزيت العربية الأمريكية
لموظفي الشركة - توزع مجاناً

رئيس التحرير والمدير المسؤول منصور مدني
المحرر المساعد عوني أبو كشك

العنوان : صندوق رقم ١٣٨٩
الظهران ، المملكة العربية السعودية

صورة الغلاف

من آثار مدينة بعلبك التاريخية (راجع المقال)
تصوير : خليل أبو النصر



تصميم وطباعة مطابع المطوع - الدمام - هاتف ٤٣٣١ - ص. ب ٣٤٣
Designed and Printed by Al-Mutawa Press, Dammam Tel. 4331 - P. O. Box 343

محتويات العدد

صفحة

القافلة تسير

آداب

بحوث

استطلاعات مصورة

ندوة القافلة

تاريخ

قصة

كتب

متنوعات

لغة اليوم والغد

البناء

الرايات التي ارتفعت في الماضي وما زالت ترتفع اليوم محاولة التفتيت في عضد اللغة العربية كثيرة . وهي وان تفرقت وتباعدت في الميول والأهداف تلتقي تحت شعارين وهميين كبيرين احدهما يقول بترك اللغة العربية الفصحى واستبدالها باللهجات العامية مدعيا انها أصبحت بعيدة عن واقع حياتنا فهي في واد ونحن في واد .. والثاني يدعو الى اعتماد اللغات الأجنبية في العلوم والأبحاث موهما أن لغتنا العربية عاجزة عن استيعاب روح العصر العلمية بعد أن ظلت – على حد هذا الادعاء – شبه جامدة هامدة خلال سنين طوال لا تواكب العلم ولا تساير الحضارة والتقدم الا بمقدار ضئيل .

هاتان هما ركيزتا الادعاءات التي تقوم بين فترة وأخرى للنيل من هذه اللغة الشريفة . ولكننا لسنا هنا في موضع تفنيد أغراض مثل هذه الادعاءات ، فهي على الرغم من كثرتها واهية كخيوط العنكبوت ، شفافة كسجف الظلام يبددها نور الحقيقة والواقع .

العربية الفصحى بعيدة الى حد ما عن متناول عدد كبير من أبنائها ، وليس هذا خطأ اللغة نفسها ، بقدر ما هو نتيجة عرضية تسببت بها عصور من الركود الثقافي حلت في البلاد العربية . ويكفي اللغة العربية فخرا انها صمدت الأجيال الطوال في وجه جميع التيارات المناهضة لها . ولكن بعد الشقة بين العرب ولغتهم لا بد له أن يزول حيث وجد ، بانتشار العلم وتوفر الفرص الدراسية أمام الملايين ومجهود وسائل الاعلام ورجال التربية .

وفي هذا وحده ما يكفي لنقض الادعاء الأول الذي سيصبح أثرا بعد عين في السنين المقبلة غير البعيدة ان شاء الله .

أما القول بعجز اللغة العربية عن استيعاب روح العصر العلمية فهو قول باطل لا طائل تحته ولا قدرة له على الصمود أمام واقع الحال .

فاللغة العربيـة وسعت اعجاز كتاب الله والأحاديث النبوية الشريفة وفي هذا أكبر برهان على مرونتها وقابليتها على استيعاب المعاني العظيمة وسعة آفاقها .

وهي لغة ، بالاضافة الى الشرف الذي خصها الله به ، وسعت أيام الأمويين والعباسيين علوم حضارات الأرض وآدابها عندما كانت لغات العالم الأخرى تمرح في ميادين الجهل والتخلف . وتكفينا دراسة واقعية لمعاجم اللغة العربية وكتبها لنرى أن لغتنا الشاعرة ثرّة بالألفاظ غنيّة ، بل انها أغنى لغات الأرض دون استثناء .

فأي لغة تمتلك ناصية التعبير والبلاغة والاشتقاق بمثل المرونة والمتانة وحسن السبك والجزالة المتوفرة في العربية ؟

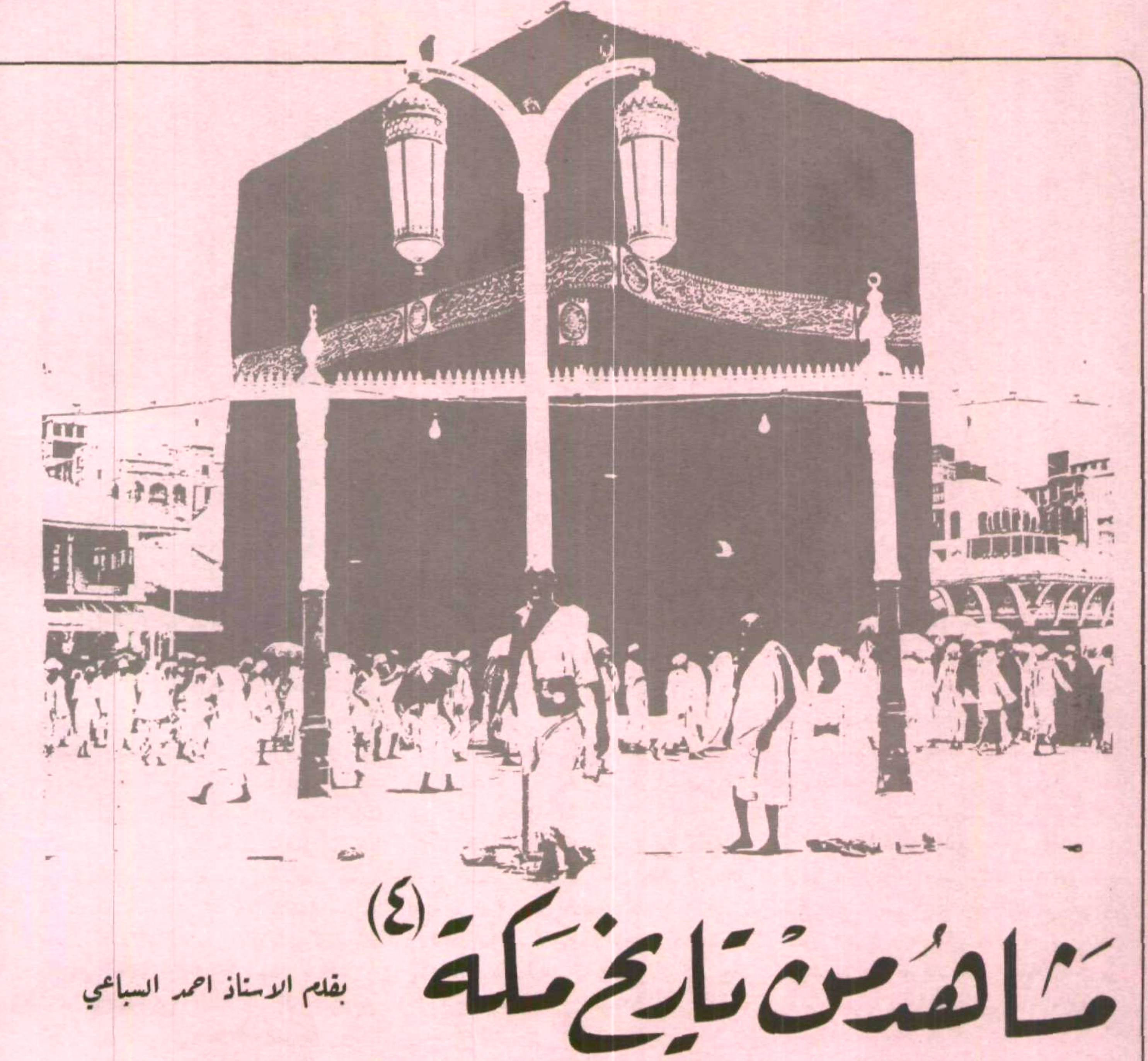
وأي لغة تحتوي ألفاظها على عشرات الأسماء والمترادفات والمتواردات بل مئاتها للرياح والسحب والطيور والحيوانات والظواهر الطبيعية وعلوم الفلك والطب والطبيعيات وغيرها ؟ وللعربية خواص كثيرة غير هـذه تمتاز بهـا ويصعب تحديدها وتفصيلها هنا .

لغتنا العربية ليست فقيرة اذن ، اما العجز الذي يحاول البعض أن يصمها بـه فهو ان وجد مؤقت نتج عن عدم تمكن من آلت اليهم هذه اللغة من مواكبة التطور العلمي والتقني في العالم الغربي نتيجة ظروف تاريخية معينة . ولدى العلماء والمفكرين والأدباء العرب دراسات تظهر أسبابه ، وهـم جادون في معالجته .

وبهذه المناسبة أذكر ان أحد الأدباء كان يقول بكل تواضع : « ما نجهله من العربية أكثر مما نعرفه .. هذا ما يبدو لي كلما قرأت أدب الكاتب لابن قتيبة والكامل للمبرّد وغيرهما من كتب اللغة والأدب .. »

والأمل كبير في أن تعود لغتنا العربية فتؤكد نفسها ومكانتها للعالم أجمع بشكل لا يرقى اليه الشك ، فتنخفض رايات الادعاء بما فيها من باطل زائف زائل ، وتبقى العربية لغة اليوم والغد .

فؤاد الريس



مشاهد من تاريخ مكة (٤)

بقلم الاستاذ احمد السباعي

وتسائلني .. أكانوا أصحاب جاهلية فاسقة ؟

نعم ، لقد صادفت قريشا ظروف حضارية خاصة ، هيأها الاحتكاك بأكثر من حضارة في رحلاتهم العديدة ، ومدها الغنى ووفرة الكسب بأهم أسبابها المغرية . وأنت تعرف ماذا تأخذ الحضارة وكيف تعطي ، ولا تجهل ما في الغنى من مزالق الى الترف ، وما في الترف من استهتار بالأخلاق والقيم .

وهم الى هذا هيمن عليهم — ما كانوا يسمونه دينا — فلم يحجر عليهم متعة ، ولم يفرض سلطانه عـلى مستبيح للذة ، وتركهم يقيمون أخلاقهم بما تستنسبه معاييرهم الخاصة . أترتاب في هذا ؟ وقد قدمت لك منه لمحة قبل اليوم ؟ اتبعني اذن ، ولا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ..

هذا بيت عفراء ، وعفراء هذه من أجمل فتيات زمانها . أتشهد هذا الزحام على أبوابها ، انهم طلاب متعة ..! ولكنها ليست متعة مما تتخيل . انها متعة مشروعة في معايير أخلاقهم .. فهم أزواجها . أما ما يسمونه دينا ، فلم يتعرض للأمر بتحريم أو تحليل . لقد رضيت الجميلة أن تبني بأحدهم ، ثم بنت بالثاني ، والثالث .. والتاسع ، والعاشر . لأنها في عرفهم سيدة نفسها ، ومن حقها أن تبني بمن شاءت أو ما شاءت من العدد ، قل أو زاد .

هناك قوم منكرون ولكن لا حيلة لهم فيما ينكرون ، فظروف البيئة الحضارية مدت للبيئة في مجالي الحرية ما لا ينتهي عند حد .

وعساك تتمنى أن تستوثق من الغاية التي ينتهي اليها المنكرون اذا اشتد انكارهم على ما يرون ، ولا يكفيك ما قدمت من لمحات . لتتبعني اذن ، ففي هذه الثنية الصاعدة الى الفلق يسكن حمّسي

من قريش بشّر البارحة بمولودة لـه فتوارى في بيته من سوء ما بشر بـه .

الا .. وقف ، فهذا المنحدر في طريقه الينا هو الحمّسي الذي أعنيه ، ولكن ماذا يحمل بين يديه .

دعنا نقف على حاشية الجادة لنتبينه ، ونتبين ما بين يديه .

ها هوذا وجهه يصافحنا وعلى مخايله امارات الكظم ، فهل فسرت ما يحمل ؟ أكبر ظني انها مولودته الجديدة توارى بها خجلا من القوم يوم توارى ، ثم عز عليه أن يمسكها على هون ، فتراءى له أن يمضي بها الى البطحاء ليدسها في التراب ، فيقضي عليها .

انه يرى أنـه خير لكرامته أن يغص بآلام ما تفعل يده ، تحاشيا من أن يتعرض غدا اذا نهدت لما يخدش مروءته كحمسي غيور .

لا ، لا أريد لي أو لك ، أن نتبعه الى حفائر البطحاء فمشاعرنا أرق من أن تصمد أمام ما سيفعله . وحسبنا أنا فهمنا من المعايير التي كانت تعيشها قريش مدى الحرية التي كانت تتيحها الظروف الحضارية لمثل هذه الفتاة لو تركت تعيش حتى تنهد ، وأنا عرفنا مبلغ ما كان يعانيه المنكرون في سبيل هذه المعايير ، وجلهم من جماعة الحمس المترفعين ، عن بعض ترهات قومهم .

وانا عندما أقول عن الحمس انهم مترفعون عن بعض ترهات قومهم ، أعني بهذا أنهم كانوا مضحكين في اقرارهم ما يستنسبون من ترهات أخرى .

لعلك تذكر ما قدمت لك قبل اليوم عن شعائرهم ، وهم يحرمون على أنفسهم أن يستظلوا بخيمة اذا احرموا للحج ، وان يطعموا السمن ، أو الزبد ، او اللبن . وأنـه ربما عرضت لأحدهم الحاجة ، وقد خرج من بيته محرما ، فلا يستبيح لنفسه أن يعود في حاجته الى البيت ، الا ان ينقب في ظهر البيت نقبا يكفي لدخوله منه .

هذه ألوان من التزمت المضحك شرعوها لأنفسهم ، وأضافوا اليها أغرب منها وأبعث على الضحك .

ها نحن على أبواب عرفات ، فاذا فضاء الله الواسع يموج بعشرات الألوف من مظلات الشعر والوبر ، ويزدحم بما لا يحصى من الملبين ، هبطوها من سائر فجاج الجزيرة .. ولكن ما شأن هؤلاء ، ونحن نشهدهم في نجوة من منبسط عرفات ، يتكتلون بين مخارف التلال في وادي عرفة لا تقيهم من حمارة القيظ شجرة ولا تظلهم خيمة . ترى هل جهلوا موقف الحج في عرفات ؟!

لا ، ولكن تزمتهم أملى عليهم بأنهم أهل حرم الله ، وأن عليهم أن يعتزوا بقدسية حرمهم ، فلا يتجاوزون حدوده الى عرفات . حسبهم أن يقفوا ملبين في طرف من أكنافه ، وان لا يستظلوا ، اذا استظلوا ، الا بأفياء التلال في وادي عرنة ، تمييزا لهم عن حجاج الآفاق وبرا بترابهم .. تراب الحرم .

وهم يزدلفون قبل غيرهم الى مزدلفة ، لا ليتبتلوا فيها ، بل ليثبتوا اصالتهم لحجاج الآفاق ، ويعلنوا نسبتهم الى الاقيال من اصلاء مكة : « أنـا فلان بن فلان ، من آل زعطان ، أو فخذ ترتان .. بنى أبي في مكة ، وشيد جدي قبله في بطحائها . »

انها جناية التزمت المقيت ، الذي لا يبصر الى أبعد من مدى عينيه ، فيهيىء للمستهتر أن ينافق عواطفه ، ثم يهتبلها فرصة ليمد في استهتاره ، ويرتع في بحبوحة فجوره على حساب المتزمتين في غير منهاج أو شرعة .

أريد أن أقول لك بعد هذا أن مذاهب الحياة في مكة لعهد قريش كان لا يجمعها جامع ، ولا يهيمن عليها سلطان ، ولا يحكم أخلاقها معيار.

هنا حمسي يشدد في غير شرعة . ربما غضب لتمرة غصبها غاصب ، وأباح لنفسه استغلال اليتيم ، واستباح من أموال الربا ما لا نهاية لحدوده . وهناك من أصحاب العقائد من يدين بالنصرانية ، أو يؤمن باليهودية ، أو يؤله الكواكب ، أو يقدس الأصنام ، أو يكفر بكل معتقد ، ويرى انه مخلوق الدهر وأنه لا يهلكه الا الدهر .

في هذا المجتمع المائج اضطرمت الأفكار واصطخبت ، ونشأت في مهده أجيالا لا تعرف الالتزام ولا تعتد بـه ، واحتكت بها آلاف الظروف الحضارية ، فأعطت أكثر مما أخذت ، ومدت من مجالي الحرية الشخصية ما لا حد لسعته . فاشتعلت وقدة المشاعر وانطلقت تندفع في آفاق لا يحدها قانون ، وانطلق الشعر بانطلاقها يحلق في كل مجال ، فكان أبو طالب ، وأبو سفيان ، وأبو حذافة ، وهبيرة بن أبي وهب ، وعبد الله بن الزبعري ، والزبير بن عبد المطلب . وجاراهم الهذليون جيرانهم ، فكان منهم جنادة ، وجندب ، والمتنخل ، وأبو ذؤيب ، وأبو خراش ، واسامة بن الحارس ، والعجلان ابن خليه .

والصوت مجالات الفن اللاهي ، فكانت حفلات السمر تضج بها شعاب مكة في أكثر لياليها ، تتصدرها الفنانات من الاصيلات والقيان . كن لا يحتجبن ولا يتوارين ، وكانت الغانيات منهن يتبرجن تبرجا فاتنا ، نعاه القرآن عندما نهى المسلمات أن يتبرجن تبرج الجاهلية .

أيروقك أن تسمع ؟ هذا جيش قريش في منصرفه من غزوة بدر ، يأبى عليه أبو جهل أن ينصرف منصرف الجيوش : « والله لا نرجع حتى نقيم على بدر ثلاثا ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمور ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب . »

وهذا التزمت الذي حدثتك عنه قبل اليوم ، والذي جعلوا منه شرعة تفرض على الطائف ان لا يطوف بالبيت في ثوبه الذي أذنب فيه ، ألا ترى فيه ما يبعث على الأسى أو يغري بالضحك؟!

اذا كنت تريد أن تشهد مآسيه ، فهلم بي ننحدر الى صحن الكعبة .. هذه فتاة من آل عبد العزّي تنحدر أمامنا الى المطاف . أترى هذا العتل الأشنب كيف يعترض طريقها ؟! انه لا ينوى ريبة بما يعترض ، ولكنه حمسي جامد يأبى أن يطوف مثلها في ثوب أذنبت فيه ، فهو يسوقها الى معروضاته من الثياب الطاهرة ليتكسب من أجرتها . أتراها كيف انسلخت من ثيابها المذنبة تحت ضغط أوامره الصارمة ؟! لقد وجدها لا تملك أجرة ثيابه ، فدفعها لتطوف عارية .

اذا رأيت ، ثم رأيت .. أمة لا تنسى حتى في أشد أيامها محنة أن تحتفل بفنها اللاهي ، فتصطحب قيانها وخمورها وآلات سماعها حتى الى مهابط حتوفها .. كما تفعل اليوم أحدث الجيوش حضارة .

في ذكرى مولد الرسول:

« لقد حملت به ، فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب ، ثم وقع على الأرض معتمداً على يديه رافعاً رأسه الى السماء . »

آمنة بنت وهب

العودة الظافرة

بقلم الاستاذ
عبد المقصود محمد حبيب

ذهب الركب الصغير وعاد .. كان قليل العدد بين ركب غفير . وفرق كبير بين ذهابه وبين عودته .. في ذهابه تأسى عليه الباقون ، وضحكوا منه ساخرين ، وتندروا عليه ليكسبوا رحلهم ترفيها يسهل عليهم أمر الطريق ، وفكاهة تهون على قلبهم مشقته . أما في عودته فهالهم ما وجدوه عليه من تغير ، ودارت في نفوسهم نسمات الغيرة ، وعلتهم الدهشة ، وعدم التصديق – أحيانا – لما يرون .

كان الركب الكبير ، ركب المراضع من نساء البادية .. يذهبن الى مكة المكرمة بين الوقت والآخر ، يلتمسن الأطفال حديثي الولادة ، يرضعنهن ويكسبن لقاء لبنهن ما يقمن به أودهن . وكانت الأمهات ، وخصوصا نساء السادة من قاطني مكة المكرمة وأشرافها ، يلقين بأولادهن الى هؤلاء المراضع ، ويغدقن عليهن من الأجر والمكافأة وفضل العطاء ، بمقدار ما يتناسب مع ما طبعت عليه نفوسهن ونفوس أزواجهن من كرم ، وسماحة ، وحب للخير .

وارضاع أولاد الأشراف في مكة من نساء البادية لم يكن بدعا ، بل كان من عاداتهم أن يبعثوا بأطفالهم يعيشون في أحضان مراضعهم من نساء البدو ، لاعتقادهم أن جوها فيه حرية ونقاء ، وهواءها المتجدد الصحيح أحسن أثرا في نموهم الجسمي والفكري ، وفي طلاقة لسانهم ، وطبع حياتهم على الشجاعة ، والفروسية ، والشعر ، والحرية ، وقوة القلب .

جدّ ركب المراضع في سيره ، وكل منهن تطمع أن يكون في المجهول خير لها ، فتحظى برضيع ثري الأب غني الأهل ، مما يضفي عليها الوفير من الخير والنعمة .. وفي ذهن كل منهم أن تقضي رحلتها ضاحكة حتى تواجه رزقها المرجو وهي مستبشرة ، فيكون من السعة بما يرضي خاطرها .

وناهيك عن ركب من نساء يسافرن الى مكة المكرمة كي يرضعن أبناءها . مهما تكن حالة بؤسه ، فقد زاد هذا البؤس على ركب صغير بينهن ، مكون من امرأة هي حليمة بنت الحارث ، وزوجها وطفل لهما رضيع ، قدموا مع الآخرين من بادية بني سعد ، وحالتهم من دون الركب تدل على شدة الفقر والجدب .. حليمة بادية الضعف والهزال ، وزوجها ظاهر البؤس والفاقة ، وطفلهما لا يكف عن الصراخ ولا ينقطع عن أنين الجوع .. لا تكاد حمارتها الهزيلة تحملها من ضعفها ، ولا فرق بين ضعفها وهزال ناقة زوجها .

وبينما الركب يسير . كان في مكة مولود جديد ، هو من دون الآخرين للحياة فتح مبين . ولدته أمه آمنة بنت وهب في عام الفيل يوم الاثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول . وكان حمله غير حمل النساء لأبنائهن . كان يسرا وسهولة ، ونورا مشرقا . قالت آمنة :

« لقد حملت به ، فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب ، ثم وقع على الأرض معتمدا على يديه رافعا رأسه الى السماء . »

وكانت تحضر ولادته زوجة أبي العاص ، وقالت :

«لقد شهدت ولادة آمنة بنت وهب ليلة ولدته ، فما شيء أنظره في البيت الا نوّر . ولقد رأيت النجوم تدنو ثم تدنو ، حتى لقد خشيت أن يقعن عليّ . »

فرحت به أسرته رغم عدم وجود أبيه . وظل في حجر أمه بضعة أيام كان ركب المرضعات خلالها وصل الى مكة المكرمة وأخذت نساؤه يجبن الطرقات ، تدق أيديهن بيوت الوالدات . ومررن جميعا ببيت آمنة ، ولم يغرهن ما سمعنه من نور مولده . فهن يردن أهل الغنى ، حتى يحظين بأجر كبير ومال وفير .

وحليمة السعدية مرت بذلك البيت هي الأخرى ، وكانت نظرتها نحو الوليد وفقر أهله ويتمه مثل صاحباتها ، فمالت عنه مثلهن ، وأخذت تدور على البيوت الأخرى وراءهن .

وانتهت الدورة ، وخرجت كل مرضعة بما أثلج صدرها ، وأرضى شوقها فيما تمنت وأرادت ، الا حليمة لم تجد من ذلك شيئا . فعادت لزوجها عند أطراف مكة وحيدة خفيفة من أي شيء تحمله ، فقال لها :

— ما بالك يا حليمة قد عدت من دون الصاحبات صفر اليدين ؟ قالت :

— حظي اليوم كان على غير ما نبغي . قال :

— كيف ذاك ؟ قالت :

— ما وجدت سوى طفل فقير يتيم ، وليس له الا جده وأمه . قال :

— ورغبت عنه ؟ قالت :

— ما عسى أن يصنع لنا جده وأمه ، وحالنا كما تعلم في هذه السنة القاحلة !

فأصاب الرجل صمت ، ودارت في خاطره شدة عيشهم ، وزوجته بجانبه صامتة أيضا . لكنها تفكر في شيء غير حالهما .. انها تفكر في الوليد اليتيم الذي زهدت فيه وتركته ، ووجدت في نفسها شيئا مبهما يدفع بها لأن تعود اليه ، فربما لا يكون قد أخذه أحد . فنهضت ، وقالت لزوجها :

— انني والله ما زلت مشفقة على هذا اليتيم مذ رأيته ، وما زالت نفسي تراودني أن أعود اليه فآخذه . قال :

— هكذا ..؟ قالت :

— أي والله ..

فنظر الزوج حواليه ، ثم رد الطرف الى ناقته وحمارة زوجته ثم طفلهما ، وقال لزوجته :

— وما علينا اذا أخذناه يا حليمة . فلأن ترجعي ومعك هذا اليتيم خير من أن ترجعي من دونهن صفر اليدين . وقالت :

— اني والله به عالقة .

وأشرق في قلب الرجل نور فقال :

— إذهبي اليه فخذيه لعله يكون لنا خيرا وبركة .

غذت حليمة سيرها ، وأجنحة من الشوق تحملها فوق الثرى حتى جاءت بيت آمنة بنت وهب . ولم تكد تتناول « محمدا » حتى وضعته في حجرها ، وضمته الى صدرها ، ضم الظامىء الملهوف ، ولكنها بهتت وكتمت دهشتها . فقد ثقل ثدياها بما شاء من لبن ، فرضع حتى امتلأ ، وكذلك ابنها رضع هو الآخر حتى امتلأ .

وعادت بالوليد اليتيم ، وهي فرحة لما فاض عليها من رزق في ثدييها بعد وشك الجفاف ، وحكت لزوجها ما لا يمكن أن يتصوره : أن رضع اليتيم حتى شبع ، ورضع ابنها حتى شبع ، وما زال ثدياها مثقلين بما يحملان . والرجل يعجب لما يسمع ، وتتملكه الحيرة في ارجاع ما تقول الى سبب .

ظل هذا الركب الصغير تحت خيمته يستظل بها حتى يحين موعد العودة . واشتد الجوع بحليمة وزوجها ، وأرهقهما العطش ، وضيق الحر أنفاسهما . وليس هناك ما يطعمانه ، فالناقة جافة الضرع كعهدهما بها .. لا تلين الا كل وقت ووقت ، وبين الوقتين مدى طويل . لكن الأمل في استمرار الحياة دفع به أن يضع يده على ضرع الناقة .. ربما .. وما مسه بيده الا ودر اللبن منه درا غزيرا ، فشرب هو وزوجته ما شاء لهما الري ، فشبعا ولم يعد عندهما من مكان لزيادة .

نظرت حليمة لزوجها ، ونظر زوجها اليها .. كلتا النظرتين كانت واحدة . وقالت بدهشة وتعجب :

— ما هذا ؟

وقال الزوج سريعا ، يرد على قلبه المتسائل ، ونظرة زوجته التي تحمل السؤال نفسه :

— يا حليمة لقد والله حصلنا على نسمة مباركة .

وأقبلا على « محمد » يقبلانه ويضمانه في حنانهما الغامر ، وينظران الى وجهه ، فيشرق نوره الوضيء في قلبيهما ، ويضفي على فؤاديهما راحة كبيرة وطمأنينة فياضة .

غادر الركب حدود مكة ، وسار عائدا برضيعه الى مقامه في بادية بني سعد . وقامت حليمة السعدية الى حمارتها البيضاء فركبتها ، ومحمد على صدرها . وقام زوجها الى ناقته فامتطى فوق سنامها ، وابنه الرضيع معه . واندفعا بالراحلتين الهزيلتين ليلحقا بالركب الذي سبق وأمعن في السير على طريق العودة .

قنع هذا الركب الصغير المتخلف براحلتيه الهزيلتين ، وآمن أنه سيعود وحيدا بعد أن يكون الركب الكبير قد وصل الى أرضه وقضى وقتا طويلا من الراحة والاستقرار .

ولكن — ويا للعجب — فهذا الركب الذي حصل على نسمة مباركة وجد راحلتيه وقد استبدلتا بالضعف قوة ، وبالهزال عافية ونضارة ، وبالتأخر في المسير تقدما ، وبالتريث في الخطو اسراعا حتى لحقا بالرواحل السابقة ، وأصبحت حليمة تزاحم سابقاتها حتى خلفتهن وراءها . فأخذن يتضاحكن ولا يصدقن ما رأين ، فقلن لها :

— ارفقي بنا يا ابنة أبي ذؤيب . أهذه أتانك العرجاء التي كنت تركبينها في الغدو ؟!

فترد عليهن ضاحكة مستبشرة :

— هي العرجاء .. انها والله هي .

فيملؤهن العجب ، وينبو الأمر بهن عن التصديق ، ويقلن لبعضهن :

— حقا .. انه لشيء عجيب . فتجيبهن :

— لا والله .. ان لها لشأنا .

عادت حليمة الى أرضها بكسب كبير ، كانت قد رفضته أول الأمر ، ولكن رفق الله بها وبمن أراد أن يصنعه على عينه ، وأن يحمله رسالته لهداية الخلق .. منّ عليها وأشفق به . فعادت وحملته في ذراعيها ، فكثر لبنها بعد اقلال ، وأشبعه مع ابنها بعد أن لم يكن يكفي ابنها وحده ، وامتلأ ضرع ناقتها بالغذاء ، بعد أن كانت وزوجها يتضوران من الجوع أوقاتا طويلة حتى يكرمهما ضرعها بجرعات ممعنة في القلة .

ونظرت فوجدت أن الخير أقبل عليها من كل ناحية ، والبركة تحل عندها في كل شيء . حتى أغنامها تخرج الى المراعي مع أغنام غيرها ، فتعود أغنامها ممتلئات الضروع ريانة العود . ويظن الناس أن أغنامها ترعى في المراعي الخصيبة ، وأغنامهم ترعى في المراعي القاحلة .

ولكن لم يظن أحد منهم مطلقا أنها عادت من رحلتها الى مكة المكرمة بالبركة .. تحمل رسول الخير والانسانية صلوات الله عليه وسلامه .

وحدة البيت ووحدة القصيدة في الشعر العربي

بقلم الاستاذ محمود الشرقاوي

يقول بعض الكاتبين والمتحدثين في الشعر العربي ان القصيدة فيه قائمة على وحدة البيت ، بمعنى أن كل بيت في القصيدة قائم منفرد بذاته ، لا ترابط بينه وبين ما قبله وما بعده من أبيات القصيدة ، وليس قائما — كالشعر الغربي — على وحدة القصيدة ، بحيث يجد القارىء أو السامع لهذا الشعر أن هناك وحدة وترابطا بين أبيات القصيدة كلها ، أو بين أبيات كل « مقطع » منهـا على الأقل .

والأستاذ العقاد يسمي هذه الوحدة « الوحدة العضوية » ، وهي أن تقوم القصيدة على موضوع واحد ، ويسمي وحدة البيت « التفكك » ، وهو : « أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات متفرقة ، لا تؤلف بينها وحدة الوزن والقافية . وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة ، اذ كانت القصائد ذات الأوزان والقوافي المتشابهة ، أكثر من أن تحصى . ان القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها ، واللحن الموسيقي بأنغامه ، بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها .. ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه ، لا عضوا متصلا بسائر أعضائها فيقولون : أفخر بيت ، وأغزل بيت ، وأشجع بيت ، وهذا « بيت القصيد » وواسطة العقد ، كأن الأبيات في القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها ، فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها » .

وبهذا المقياس نقد العقاد شعر شوقي فـي حملته المأثورة عليه ، والتي يذكرها قراء الأدب ومؤرخوه في الربع الأول من هذا القرن ، وكذلك فعل الأستاذ « اسماعيل مظهر » في نقده لشوقي أيضا .

فهل صحيح أن الشعر العربي ، على وجه التعميم ، يقوم على وحدة البيت وليس على وحدة القصيدة ؟

وهل صحيح أن هذا عيب في هذا الشعر يضعه في منزلة أدون من الشعر الغربي ؟

الجواب على السؤال الأول هو النفي ، فالشعر العربي عـلى وجـه التعميم ، لا

يقوم على وحدة البيت على الدوام ، وما عاب به العقاد شوقيا في ذلك أعتقد أن سببه عنف الخصومة الأدبية التي كانت قائمة بينهما يوم ذاك . والعقاد نفسه لـه قصائد كثيرة من أجود شعره قائمة عـلى تلك الوحدة العضوية ، التي يقول ان الشعر ينبغي أن يقوم عليها .

نجد وحدة القصيدة وتماسكها « العضوي » الكامل في كثير من الشعر العربي على مختلف عصوره ، من الجاهلي الى عصرنا الحاضر . ومعلّقة امرىء القيس فيها مقطوعات تمثل وحدة القصيدة تمثيلا كاملا في حواره مـع « فاطمة » ، وفي غيرها . يقول :

أفاطم : مهلا بعض هـذا التدلـّل
وان كنت قد أزمعت صرمي فأجملي
أغـرّك منّي أن حبـك قاتـلي
وأنك مهما تأمـري القلب يفعـل

ونجد وحدة القصيدة قائمة متكاملة في هذه القصيدة الرائعة لمالك بن الرّيب المازني ، من رجال القرن الأول الهجري ، يذكر من يظن أنه سيبكي عليه بعد موته ، فلا يجد غير سيفه الذي كان يبطش به ، ورمحه الذي كان يطعن به الأعداء والخصوم ، ثم ينادي صاحبيه يقول لهما ماذا يصنعا وقد قرب منه أجله :

تذكّرت مـن يبكي عليّ فلـم أجد
سوى السيف والرمح الرّديني باكيـا
فيا صاحبي رحلي ، دنا الموت فانزلا
برابيـة ، انـي مقيـم لياليـا
أقيما عـليّ اليـوم أو بعض ليلـة
ولا تعجلانـي ، قـد تبيّن مابيـا
وخطّـا بأطـراف الأسنة مضجعي
وردّا عـلى عينيّ فضل ردائيـا
ولا تحسداني ، بارك الله فيكما ،
من الأرض ذات العرض أن توسعا ليـا
خذاني فجـرّانـي بـبُردي اليكمـا
فقد كنت قبل اليوم صعبـا قياديـا

وقد زار الشاعر منازل أحبابه الراحلين ، ثم وقف على أطلال هذه المنازل يسألها عن أصحابها ، داعيا الله أن يجود عليها بالمطر الغزير ، ثم يقوم بين الشاعر وهذه الاطلال هذا الحوار القوي الجميل في هذه القصيدة :

تعاهـدتك العهـاد يـا طلـل
خبّـر عن الظاعنين : ما فعلوا ..؟
فقال : لـم أدر غـير أنّهـم
صاح غـراب بالبـين فاحتملـوا
لا طـال لـيـلي ولا نهاري مـن
يسكنـني أو يردّهـم قفـل
ولا تحلّيـت بالريـاض وبالنّو
ر ومغناي منـهـم عـطـل
عليّ هـذا ، فمّا عليك لهم ..؟
قلـت : زفـير ودمعـة هـمل
وانـي مغلـق الضمائـر مـن
حبّ سواهم ما حنّـت الابـل
فقال : هـلاّ تبعتهـم أبـدا
ان نـزلـوا مـنزلا وان رحـلـوا
هيهات : انّ المحـبّ ليس لـه
هـمّ بغـير الهـوى ولا شغـل
تركـت أيـدي النـوى تعود همو
وجئتني عـن حديثهـم تسل ..؟
فقلت للقـول ، لا قـرار لنـا
مـن دون سلمى وان أبـى العذل

ويثيره تحميس هذه الأطلال ولومها اياه على التراخي في تتبع أصحابه ، فيخرج الى الصحراء على مطيته تضرب أخفافها الأرض في هجير الشمس :

ولم أزل أخبط الفـلاة بأخفـا
ف المطـايـا والظـل معتـدل

وأي روعة في وحدة القصيدة نجده أقوى وأبـرع مما نجده في قصيدة « عمر بن أبي ربيعة » التي مطلعها :

أمن آل نعم انت غاد فمبكر

والتي يصف فيها كيف رأته « أسماء » بعد الغيـاب ، وصاحبتها تحاورها ، فتقولان :

قفي فانظري ، أسماء ، هـل تعرفينه
أهـذا المغيريّ الذي كان يذكـر
أهـذا الذي أطريت نعتا فلم أكن
وعيشك أنسـاه الـى يـوم أقـبر
فقالت : نعـم ، لا شك غيّـر لونه
سرى الليـل يحيـى نصّه والتّهجّر
لئن كان ايّاه لقد حـال بعدنا
عـن العهد ، والانسان قـد يتغيّر
رأت رجلا : اما اذا الشمس عارضت
فيضحـى وأمـا بالعشيّ فيحصـر

يصف نفسه وهزاله وسيره وشقاءه حتى يصل منازل قومها ويريد أن يعرف بيتها بين تلك المنازل ، فيقول :

وبتّ أناجـي النفس : أين خباؤها
وكيف لما آتي من الأمـر مصدر
يدلّ عليها القلب ريّـا عرفتهـا
لها ، وهوى النفس الذي كاد يظهـر
فلما فقدت الصوت منهـم وأطفئت
مصابيـح شبّـت بالعشاء وأنـور
وغاب « قمير » كنت أرجو غيوبه
وروّح رعيـان ونـوّم سمّـر
وخُفّض عني الصوت اقبلت مشيـة
الحباب وشخصي خشية الحـيّ أزور
فحيّيـت اذ فاجئتهـا فتولّهت
وكادت بمخفوض التحيـة تجهـر
وقالت ، وعضّت بالبنان ، فضحتني
وأنـت امـروٌ ميسور أمـرك أعسر

ثم نجد بعد ذلك قصة بارعة يسوقها عمر ابن أبي ربيعة في شعر رائع قائم على الوحدة العضوية ، يصف فيها كيف تحايل حتى خرج يسير بين صاحبتيها من منازل القوم دون أن يحسّوا به .

ثم يجيء « ابن الرومي » ، شاعر التوليد والاسترسال ، فنجد له قصائد طويلة ورائعة ، تقوم على وحدة القصيدة وحدة « عضوية » كاملة .

أختار مثلا لذلك قصيدتين له : الأولى رثاء ولده الأوسط ، وفيها يصف حزنه ولوعته على هذا الولد ، وأن أخويه اللذين عاشا بعده ليس لأبيهما فيهما شيء من العزاء والسلوان ، بل فيهما له اللوعة والتذكير بفقد من فقد :

محمد : مـا شيء توهّـم سلوة
لقلبي الاّ زاد قلبي مـن الوجد
أرى أخويـك الباقيين كليهمـا
يكونان للأحزان أورى ، من الزّند
اذا لعبـا في ملعب لـك لذّعا
فؤادي بمثل النار ، عن غير ما قصد

فمـا فيهما لي سلوة بل حـرارة
يهيجانها دونـي وأشقى بها وحدي

* * * *

وأني ، وان متّعت بابنيّ بعـده
لذاكـره مـا حنّت النيبّ في نجد
وأولادنـا مثـل الجوارح أيّـها
فقدناه كان الفاجع البيّن الفقـد
هل العين – بعد السمع – تكفي مكانه
أم السمع – بعد العين – يهدي كما تهدي
لعمري لقد حالت بـي الحال بعده
فيا ليت شعري ! كيف حالت به بعدي
ثكلت سروري كلّه اذ ثكلتـه
وأصبحت في لذات عيش أخا زهد

والقصيدة الثانية من شعر ابن الرومي هي تلك الميميّة الرائعة التي قالها في رثاء البصرة ، وما نال أهلها من فتنة الزنج (١) ، والتي يقول فيها :

بينما أهلهـا بأحسن حـال
اذ رماهـم عبيدهم باصطلام
وخلوهـا كأنهـم قطع الليـ
ـل اذا راح مدلهمّ الظـلام
أي هول رأوا بهـم أي هـول
حقّ منه يشيب رأس الغلام
اذ رموهـم بنارهم مـن يمين
وشمال وخلفهـم وأمـام
كم أغصّوا مـن شارب بشراب
كم أغصوا من طاعم بطعام
كـم ضنين بنفسه رام منجـا
فتلقـوا جبينـه بالحسام
كم أخ قد رأى أخـاه صريعا
ترب الخدّ بـين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه
وهو يعـلى بصارم صمصـام
كم مفدّى في أهلـه أسلموه
حين لـم يحمه هنالك حامـي
كم رضيع هناك قد فطموه
بشبا السيف ، قبل حين الفطام

* * *

بدّلت تلكم القصور تـلالا
من رماد ، ومن تراب ركام
سلّط البثق(٢) والحريق عليها
فتداعـت أركانهـا بانهدام
وخلت من حلولها فهي قفـر
لا ترى العين بين تلك الآكام
غير أيـد وأرجل بائنـات
نبـذت بينهن أفلاق هـام
ووجوه قـد رمّلتها(٣) دماء
بأبـي تلكم الوجـوه الدوامي
وطئت بالهـوان والـذل قسرا
بعد طول التبجيل والاعظـام

الى آخر هذه القصيدة الفريدة من عيون الشعر العربي .

ونجد وحدة القصيدة قائمة كاملة في قصيدة « البحتري » المشهورة في وصف « ايوان كسرى » ، وبخاصة في تلك الصورة المتكاملة الرائعة التي تصوّر ما كان على حوائطها من الرسوم والتصاوير :

لـو تراه علمت أن الليالـي
جعلت فيـه مأتما بعد عـرس
وهـو ينبيك عن عجائب قـوم
لا يشاب البيـان فيهـم بلبس
فـاذا مـا رأيـت صورة أنطـا
كيّة ارتعت بـين روم وفرس
والمنايـا مواثـل ، « وانـوشر
وان » يزجي الصفوف تحت الدّرفس (٤)
في اخضرار من اللباس عـلى اصفـ
ـر يختال فـي صبيغة ورس
وعـراك الرجـال بـين يديـه
فـي خفوت منهم وأغماض جرس
من مشيح يهوي بعامـل رمح
ومليـح مـن السنان بـترس
تصف العين أنهـم جدّ أحيـا
ء لهـم بينهـم اشارة خـرس
يغتـلي فيهـم ارتيابـي حـتى
تتقرّاهـمـو يـداي بلمـس

كما نجدها قائمة قوية متماسكة فـي قصيدته المشهورة ، التي يصف فيها كيف لقيه الذئب في الصحراء ، وكيف تواثبا ليفترس كل منهما صاحبه :

سما لي ، وبي من شدّة الجوع ما به
ببيداء لـم تعرف بها عيشة رغـد
كلانا بها ذئب يحدّث نفسه
بصاحبـه والجـدّ يتعسه الجد

ثم يتغالبا فيغلب « البحتري » الذئب فينال من لحمه قطعة قليلة ، ثم يتركه وحيدا قـد عفّره التراب :

ونلت خسيسا منـه ثم تركته
وأقلعت عنـه وهـو منعفر فرد

فاذا جاء العصر الحديث وقويت الصلة بين شعراء العربية وشعراء الغرب ، كان من الطبيعي أن نجد شعرا كثيرا تقوم قصائده على هـذه الوحدة ، التي رأينا أن شعراءنا عرفوها في كثرة ووفرة منذ العصر الجاهلي .

نجد للعقاد من ذلك قصائده « العقاب الهرم » و « وقفة في الصحراء » و « ترجمة شيطان » ، و « كولومب في الاقيانوس » ، وغيرها .

ومن أجمل النماذج في ذلك قصيدة « الأطلال » للشاعر ابراهيم ناجي ، وقصيدتا « أعطني الناي وغن » ، و « المواكب » « لجبران خليل جبران » .

وهذه أربعة أبيات فقط ، لا نجد فيها وحدة قصيدة فقط ، بل نجد – الى جانب ذلك – حوارا يتضمن قصة من قصص الحياة خالدة ، وهي للشاعر المهجري الكبير « نسيب عريضة » :

أخـذت نفسي الى طبيـبي
وقلت : يا طبّ ، ما العلاج ..؟
فـراح يأسو سقام جسمـي
ويحسب الداء فـي المـزاج
فقلت : يـا صاح جـفّ زيتي
فبـاطـلا تجـبر السـراج
اذا خبـا النور فـي الدراري
فما ترى ينفع الزجـاج ..؟

ومن أجمل الشعر الجديد الذي نجد فيه « وحدة القصيدة » الى جانب حلاوة اللفظ ودقة الشعور وجمال الوصف ، قصيدة الشاعر المعاصر « فؤاد شاكر » في « مصيف الطائف » وهي طويلة نجتزىء منها بهذه الأبيات :

مصيفنـا الرائـع الجميل
وجـوّه المشرق العليـل
وليلـه ، بالمـنى ، قصـير
ويومـه ، بالسّنـا ، طويل

(١) في سنة ٢٥٧ هـ . (٢) المـاء . (٣) لطختها. (٤) العلم .

أشجاره الخضر باسقات
وظلّها وارف ظليل
تضوّعت بيده عبيرا
وروحها ناسم بليل
* * *
وصيّب المزن قد توالى
غيثا فتروى به السهول
وهبّ من بعده نسيم
مؤرج ، منعش ، بليل
* * *
ذاك هو « الطائف » المفدّى
طواف قلبي به يطول
مباهج الحسن في رباه :
الليل ، والفجر ، والأصيل

ومن الأمثلة الصادقة التي نجدها لوحدة القصيدة في الشعر العربي الحديث ، قصيدة «السفينة الجوالة» للشاعر المهجري الكبير « جورج صيدح » ، التي يصف فيها — في صور حية متماسكة — ركوبه على ظهر هذه السفينة في طريق هجرته الى أمريكا ، ويصف حياته وحياة الناس فوقها ، فيقول :

لي في البحيرة مركب
كالصرح ، لا يتقلّب
هو في العشيّة مسرح
هو في الضحيّة ملعب
هو في النهار حمامة
هو في الليالي كوكب
جمع الزوارق حوله
كالولد يجمعها الأب

وفيها يصف مشاعر قلبه واحساسات نفسه في صور قلقة صادقة متماسكة ، فيقول :

أني أتيتك ، يا بحيـ
ـرة مدنفا أتطبّب
أنا ذلك الشبح المريـ
ـب الواجف المتغرّب
حيران أية محنة
أشكو ، وأية أندب
لي مدمع ، في القلب سا
ل ، عن العيون محجّب
حذر الحسود اذا رأى
من ذلّتي ما يرغب

ثقلت على نفسي الحياة
وضاق فيها المذهب
لا مال ، لا آمال لا
هدف يلوح فأطلب
* * *

أما السؤال الثاني : « هل وحدة البيت عيب في الشعر العربي يضعه في منزلة أدون من منزلة الشعر الغربي » ، فالجواب عليه النفي أيضا :

فأي عيب في أن بيتا ، أو شطر بيت ، بلغ من السلاسة وصدق التجربة مبلغا جعل الناس ، على المدى الطويل ، يحفظونه ويتذاكرونه ويتداوله بعضهم عن بعض ويسمعه بعضهم لبعض !؟

كما نجد في بيت عمرو بن براق الهمذاني ، مثلا :

متى تجمع القلب الذكيّ وصارما
وأنفا حميّا تجتنبك المظالم

أو في هذا البيت :

ولا يقيم على ضيم يراد به
الا الأذلاّن : عير الحي والوتد

أو في هذه الأبيات المفردة من معلقة « زهير ابن أبي سلمى » ، وهي أبيات تفترق ، ولكنها مع ذلك تجتمع في نسيج متناسق من الحكمة والصدق والرّواء والبلاغة العالية :

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله
ولكنني عن علم ما في غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء ، من تصب
تمته ومن تخطىء يعمّر فيهرم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة
يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
وان يرق أسباب السماء بسلّم
ومن يجعل المعروف في غير أهله
يكن حمده ذمّا عليه ، ويندم
ومن يغترب يحسب عدوّا صديقه
ومن لا يكرّم نفسه لا يكرّم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وان خالها تخفى على الناس تعلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم يبق الا صورة اللحم والدّم

وكل بيت من هذه الأبيات الرائعة أصبح مثلا يتلى ، ويحفظ ، ويدوّن على مدى الأجيال والدهور .

ومن ذلك أيضا بيت لشوقي . له وحدة ذاتية قائمة متكاملة :

ينال باللين الفتى بعض ما
يعجز ، بالشدة ، عن غصبه

أو قوله :

الأم مدرسة اذا أعددتها
أعددت شعبا طيّب الأعراق

أو قول القائل :

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها
هوانا بها كانت على الناس أهونا

أو قول المتنبي :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

وعشرات ، أو مئات غيرها .

بل ان أشطر أبيات ، سارت — لصدقها وبلاغتها — مثلا ، وحقّ لها أن تكون ، كشطر المتنبي ، الذي يقول :

لا تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

والذي يقول : **ما لجرح بميّت ايلام**

وشطر بيت أبي فراس :

اذا متّ ظمآناً فلا نزل القطر

وشطر البيت الذي يقول :

حفظت شيئاً وغابت عنك اشياء

والذي يقول : **من قرّ عيناً بعيشه نفعه**

وغير ذلك كثير جدا مما تضمنته دواوين الشعر وكتب الأدب والأمثال .

فهذه الأبيات وأشطرها تجمع ، في بلاغة وايجاز ، ثمرة الحكمة والمعرفة وخلاصة التجارب الانسانية ، ويكفيك هذا لتكون باقية خالدة . وكثير من هذه الأبيات وأنصافها لو ترجم لبقيت له قيمته وحكمته وصدقه ، ولو أن بلاغته العربية قد تكون مرهونة بلغتها وأدائها وصياغتها وذوقها العربي .

بعلبك
مدينة الشمس

لم يبق من الـ ٥٤ عمودا التي كانت تحتضن هيكل « جوبيتر » سوى هذه الأعمدة الستة .

أيه آثار بعلبك سلام — بعد طول النوى وبعد المزار
ووقيت العفاء من عرصات — مقويات أو آهل بالفخار
خرب حارت البرية فيها — فتنة السامعين والنظار

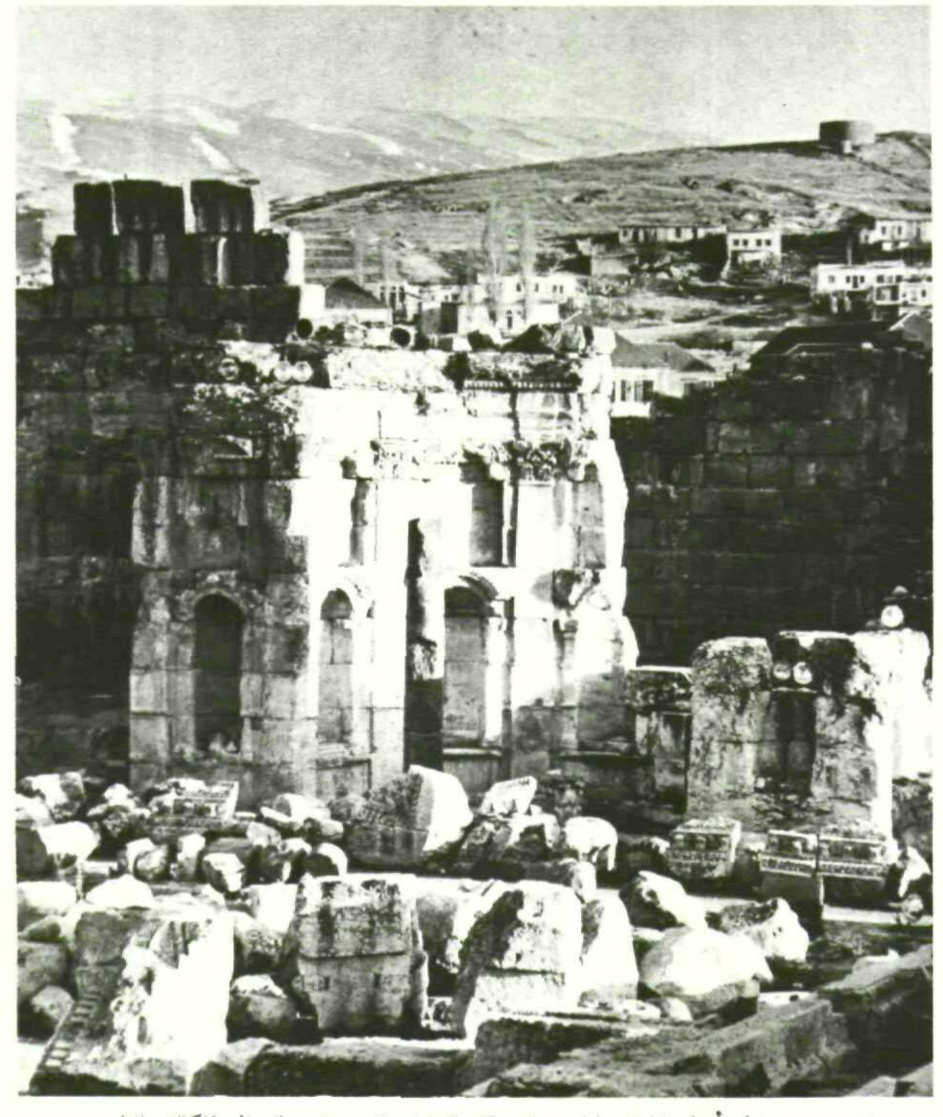
خليل مطران

تحت كل حجر من حجارتها الضخمة ، وعلى صفحة كل من أعمدتها الثابتة الراسخة ، وفوق كل مدرج من مدرجاتها الرحبة تكمن الروعة ، ويتجلى الجمال .. تلك هي قلعة بعلبك التي تعود الى عهد موغل في القدم ، والتي حيك حـــول مولدها العديد من الأخبار والأساطير . قيل فيها : « انها أقدم بناء في العالم .. شيدها قاين بن آدم عام ١٣٣ من بدء التكوين ، في احدى سورات غضبه ، وأطلق عليها اسم ولده اخنوخ ، ثم أسكن فيها جماعة من العمالقة ، تعسفوا وظلموا ، فكان عقابهم الطوفان .. »

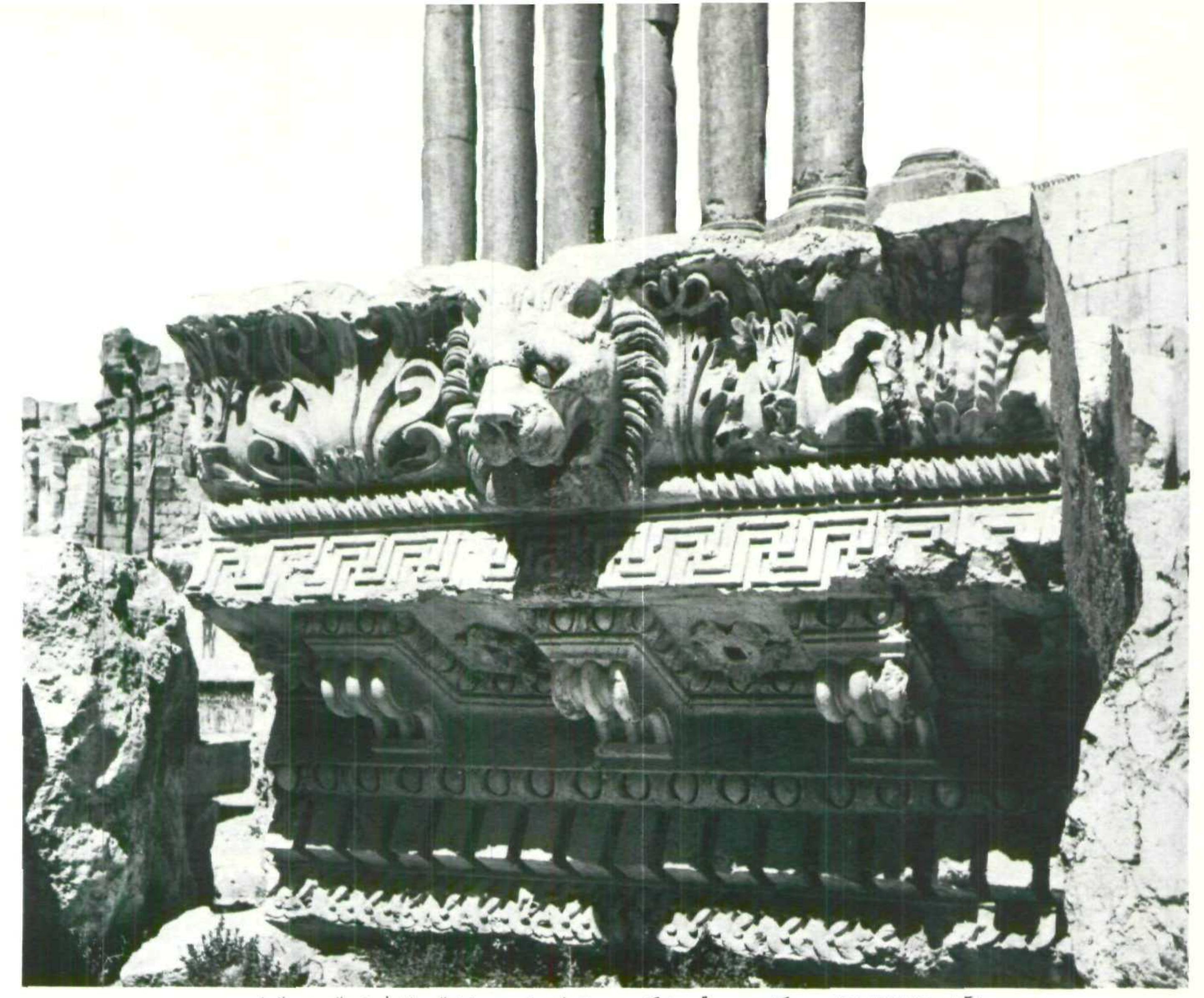
وربما أثرت هذه الأسطورة أو غيرها على المؤرخ العربي زكريا القزويني ، فقال لدى ذكر بعلبك : « يستطيع المرء فيها رؤية قلعة سليمان الحكيم ، التي أورثها من بعده ابراهيم ، كما يستطيع مشاهدة هيكل (اليزا) . » ومهما كانت الأساطير أو القصص التي تحاك عن المدينة ، فهي تضفي على هذه المعالم الأثرية الرائعة المزيد من الغموض والعراقة ، وتحدو بالسائح الى زيارتها ، والوقوف على ما تبقى من معالمها .

تسمية بعلبك

يعتقد علماء الآثار ان أصل تسمية مدينة بعلبك يعود الى عهد الفينيقيين . وذلك لأن كلمة « بعل » تعني بالفينيقية « الشمس » ، وكلمة « بك » تعني « مدينة » ، وهكذا يكون



تبدو من خلال أسوار قلعة بعلبك مباني المدينة الحديثة ، وقمم الجبال المكللة بالثلوج .



الآثار القليلة المتبقية من هيكل « جوبيتر » تعكس صورة واضحة عن مهارة الرومان في فن النحت والبناء .

اللقب الغالب على بعلبك « مدينة الشمس » ما هو الا ترجمة حرفية لتسميتها الفينيقية . ولعل ما يزيد في صحة هذا القول اطلاق الرومان عليها اسم « هليو بوليس » الذي يعني أيضا مدينة الشمس ، لا سيما وان صورا عديدة للشمس تظهر محفورة على بعض الهياكل .

بعلبك الأمس

اذا عدنا الى التاريخ وقلبنا صفحاته بحثا عن بعلبك . وجدنا أن أول فاتح وطئت قدماه أرضها هو اسكندر المقدوني أثناء مطاردته « داريوس » ملك الفرس . وبعد وفاتـــه استولى عليها البطالسة ، وجعلوا منها مركزا اداريا . وعندما احتل الرومان لبنان وسوريا حوالي عام ٦٣ قبل الميلاد ، واستولوا على بعلبك ، أحاطوها بكثير من الرعاية والعناية ، فبنوا فيها الهياكل والمعابد والمسارح بشكل أكثر اتقانا من آثارهم العمرانية في روما نفسها .

وفي عهد الامبراطور « أوغسطس » ، أطلق على بعلبك اسم « هليو بوليس » (مدينة الشمس) بعد أن أحالها الى مستعمرة رومانية . وعندما اعتنق الامبراطور قسطنطين المسيحية ، أنشأ في قلب هيكل الشمس كتدرائية ، ظلت قائمة حتى جاء « جوليان » وأمر بهدمها . وفي عام ٦٣٤م فتحها العرب فشيدوا فيها مسجدا كبيرا ، ومدرسة محاذية له . ومنذ ذلك الحين تحولت هياكل بعلبك الى قلعة عظيمة .

ان معظم معالم بعلبك لا تزال آثارها قائمة في شموخ رغم ما شهدته من حرائق ، وزلازل ، وفيضانات ، وكوارث .. وكأنها تتحدى عوامل الحدثان . وهذه الآثار هي التي أسبغت على بعلبك شهرتها الحالية ، وجعلتها محط الأنظار ومقصد السواح والزوار . وأهم معالمها الباقية هي : القلعة ، وهيكل « جوبيتر » ، وهيكل « باخوس » ، وهيكل « فينوس » ، والآثار العربية .

القلعة

تقع القلعة في الجزء الغربي من المدينة ، وهي عبارة عن أعمدة مستطيلة . طولها حوالي خمسين مترا ، وعرضها حوالي احد عشر مترا ، يليها فناء شبه مربع كان مسكنا لكهنة «جوبيتر» ، ففناء أكبر ، يبلغ طوله ١١٧ مترا ، وعرضه ١١٢ مترا ، يعرف باسم « هيكل الذبيحة » ،

أقيمت في وسطه الكتدرائية ، التي سبق ذكرها ، والتي هدمها « جوليان » فيما بعد . ويدخل الزائر اليها اليوم من باب كان العرب قد أغلقوه في العهود الغابرة زيادة في التحصين ، كما أنشأوا حوله بعض المباني والمنشآت الدفاعية .

معظم المباني التي كانت في بعلبك أمست ركاما من الحجارة يبكي عظمتها الغابرة



هيكل « جوبيتر »

بقي هذا الهيكل تحت الانشاء من عام ١٠ قبل الميلاد حتى عام ٢٤٩ ميلادية . وقد شيد على قاعدة ضخمة تعلو المباني المجاورة بنحو سبعة أمتار ونصف المتر ، وتشرف على البساتين القريبة من علو يبلغ ١٣ مترا . ويشغل المعبد الأكبر من الهيكل رقعة مستطيلة من الأرض يبلغ طولها نحو ٨٨ مترا ، وعرضها ٤٧ مترا . ويحيط بالمعبد باب كبير قائم على ٥٤ عمودا ، كل عمود منها مكون من ثلاثة أحجار كلسية تربط أطرافها ببعضها البعض نواة من الحديد أو البرونز ، ويبلغ ارتفاع هذه الأعمدة من القاعدة الى القمة حوالي ٢٠ مترا ، وقطرها ٢,٢٠ من المتر ، وتعلوها قناطر حجرية تزدان بنقوش وزخارف تمثل ثيرانا وأسودا . غير أن معظم هذه الأعمدة قد تهدم بفعل العوامل الطبيعية والغزوات البشرية التي كانت تغير عليها طمعا في ثرواتها المعدنية ، ولم يبق منها سوى ستة أعمدة . أما الدرج المؤدي الى هيكل « جوبيتر » ، فيبلغ عرضه حوالي ٤٠ مترا ، وهو مبني على ثلاث مراحل مختلفة . ويحيط بثلاث جهات من الهيكل دكات مبنية من حجارة ضخمة ، منها ثلاثة يزن كل منها حوالي ٨٠٠ طن . فاذا ما تصورنا انه لم يكن لدى البناة الأوائل سوى معدات يدوية بسيطة ، استطعنا أن ندرك مدى الجهود الجبارة التي بذلت في نقل الحجارة والبناء .

هيكل « باخوس »

لعل أكثر ما يعبر عن روعة الفن المعماري وجمال التنسيق الهندسي في قلعة بعلبك عامة ، وفي هيكل « باخوس » خاصة ، تعليق السير « مور تيمر هويلر » أحد مشاهير علماء الآثار لدى زيارته لبعلبك ، حيث قال : « ان تيجان الأعمدة هي التي أعطت فن العمارة الروماني عظمته . فالهيكل الصغير « هيكل باخوس » ، كما كان يدعى في بعلبك ، يفوق « البنثيون » في روما ضخامة وعظمة ، وذلك لأنه ، ككل



يعتبر هيكل « باخوس » من أكثر الآثار الباقية تكاملا في قلعة بعلبك ، اذ لا يزال ٢١ عامودا من عواميده واقفا متماسكا .

أجزاء قلعة بعلبك ، لا يدين بشيء من صموده الى الاسمنت . وقلعة بعلبك ، علاوة على ذلك ، تقوم على أكبر قطع من الحجارة في العالم ، وبعض أعمدتها تفضل غيرها من الآثار العريقة علوا وارتفاعا . »

ولا يزال هيكل « باخوس » محتفظا بمعظم صفاته ومعالمه . ويرقى اليه بدرج مكون من ٣٣ درجة يفضي الى المدخل الرئيسي الذي يعتبر من أعظم المداخل الأثرية وأفخمها ، اذ يبلغ علوه ثلاثة عشر مترا ، وعرضه سبعة أمتار ونصف المتر . وقد نحت اطار هذا المدخل نحتا فنيا رائعا ينطق بالروعة والجمال . ففيه تشاهد سنابل القمح وفروع نباتات مختلفة ، كالعسلج والزيتون. ويشغل الهيكل رقعة طولها ٣٣ مترا وعرضها عشرون مترا ، وسقفه مزخرف برسوم ونقوش رومانية ، من ضمنها رسم « لباخوس » الذي يحمل الهيكل اسمه . وتحيط بالهيكل شرفة قائمة على ٥٠ عمودا علوها من القاعدة حتى القمة ١٩ مترا .

هيكل « فينوس »

على مسافة ٢٠٠ متر من القلعة (الاكربول) يقوم هيكل « فينوس الصغير » ، وهو يختلف عن بقية هياكل بعلبك بأنه مستدير . وقد حول هذا الهيكل في عهد الامبراطور « قسطنطين » الى معبد . ثم لما تولى الامبراطور « ثودوسيوس » الحكم ، أمر بهدم معابد بعلبك الوثنية وغيرها عبر الامبراطورية الرومانية بأسرها .

الجامع الكبير والآثار العربية

وبعد استيلاء العرب المسلمين على بعلبك استخدموها كقلعة حربية ، فبنوا فيها الأبراج ذات الفتحات اللولبية ، وأنشأوا في المواقع القليلة التحصين منها المتاريس والأسوار والكواة ، مستخدمين في ذلك الحجارة الضخمة . وقد اشتهرت أعمالهم هذه بالتناسق والدقة الفنية . كما حفروا حول أسوار القلعة خنادق عميقة ، تجعل من بعلبك حصنا منيعا يصعب اقتحامه . كذلك بنوا داخل أسوارها جوامع ، وبيوتا ، وحمامات ، وأفرانا ، ومدارس ، واسطبلات ، وحفروا آبارا عميقة للماء .

وظل العرب يقطنون قلعة بعلبك حتى منتصف القرن الثامن عشر عندما تعرضت لزلزال عنيف قوض الكثير من منشآتها ومبانيها ، فهجرها



الناحية الجنوبية من هيكل « باخوس » .

السكان وظلت مهجورة منذ ذلك الحين . ويعتقد علماء الآثار أن العرب هم أول من استخدم هياكل بعلبك كقلعة حربية . على أن هنالك فئة تخالف هذا الرأي وترى أن البيزنطيين خلال فترة استيلائهم على بعلبك بدأوا بتحويلها الى قلعة . أما الحصون التي ما زالت قائمة في هياكل بعلبك ، فتعود الى عهد أحدث من العهد البيزنطي . وتؤكد صحة ذلك الكتابات والنقوش التي تحملها والتي تدل على انها شيدت في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ومن خلفه في الحكم .

والمبنى الرئيسي الذي خلفه العرب داخل هياكل بعلبك هو الحصن القائم على مقربة من المدرج المؤدي الى هيكل « باخوس ». فقد كان مكونا في الأساس من ثلاثة أدوار ، بقي منها حتى الآن دوران.

.. تدخل الحصن عبر بوابة مخروطية الشكل ، فتجد أمامك حائطا يحتوي في الجزء الشمالي



انقاض أروقة وأقباء وجدران عفا عليها الزمن هي كل ما تبقى من حصون بعلبك .

تصوير : خليل أبو النصر

منه على باب يفضي الى الدور الأرضي . واذا تركت الباب الشمالي جانبا ، وصعدت درجا لا يزيد عرضه على متر واحد تقريبا ، أفضى بك الى الطابق الثاني ، فالثالث حيث المتاريس التي كان حماة القلعة يحاربون الأعداء منها ، ويرمونهم بمختلف أنواع القذائف . ويتألف الدور الأول من الحصن من ثلاث غرف ذات فتحات لولبية في الجدران ، ومن أربعة ممرات .

وفي شمالي المدخل الرئيسي يقع الباب المؤدي الى الدور الثاني المكون من أربع غرف ، يصل بينها ممران . وثلاث من هذه الغرف فقط ذات فتحات لولبية ، اما الرابعة ، وهي الواقعة الى يمين المدخل ، فصغيرة مصمتة ، ليس فيها أية فتحة ، ويعتقد انها كانت سجنا . اما الدور الثالث الذي كانت تحيط به المتاريس ، فقد تهدم نهائيا ولا يعرف شيء عن تكوينه الأساسي .

والأثر العربي الآخر الذي ما زالت بعض معالمه قائمة ، هو الجامع الكبير الواقع في الشمال الشرقي من هيكل « فينوس » ، والذي أصبح الآن مجموعة من الخرائب تحيط بها ثلاثة صفوف من الأعمدة ، يقال انها أخذت من أسوار الهياكل . ويعتقد بعض سكان المنطقة ان هذا الجامع كان في الأصل كنيسة ، ثم حوله العرب فيما بعد الى جامع . أما في العصور الوسطى فقد كانت القاعة الكبرى من الجامع تستعمل كمدرسة حيث كان الأساتذة والعلماء يدرسون القانون للطلاب الوافدين من مختلف الأنحاء . وفي وسط القاعة الكبرى بركة مربعة الشكل ، تقوم على أربعة أعمدة من الرخام الثمين . أما في الركن الشمالي الجنوبي من القاعة فتوجد بقايا مئذنة ، كان الجزء الأدنى منها مربع الشكل والأعلى مثمنا .

هذا وتحمل جدران الجامع الكثير من النقوش والكتابات العربية المنمقة .

بعلبك اليوم

والآن بعد ان زالت المكانة التي كانت تتمتع بها بعلبك ، وبعد أن ضعفت أهميتها كمركز تجاري وسط بين السواحل اللبنانية والسورية ، أصبحت اليوم قرية زراعية هادئة يعيش سكانها ، البالغ تعدادهم حوالي ٨٠٠٠ نسمة ، على نتاج مزارعهم من خضار وفاكهة ، وعلى ما يبيعونه من صناعات يدوية محلية للسواح والزائرين . على أن مديرية الآثار اللبنانية ، في سبيل اعادة مجد الفن المسرحي الذي عاشته بعلبك في العهد الروماني ، تعمد في صيف كل عام الى إقامة مهرجانات شعبية على المدرج الروماني الشهير لاجتذاب المزيد من السواح اليها ولاعادة النشاط التجاري الى أسواقها .

ان من يزور بعلبك في الصيف يستطيع أن يقضي نهارا ممتعا في زيارة الآثار التاريخية الرائعة ، وامسية شيقة في مشاهدة احدى حلقات تلك المهرجانات الشعبية حيث تردد جدران القلعة النغم والإيقاع ، وحيث تنبعث من خلف حجارة الهياكل وخرائبها الأنوار المختلفة الألوان والأشكال ، فتضفي على تلك الاحتفالات جوا شاعريا حالما يزيدها روعة وبهجة وفتنة وجمالا .

عصام العماد

الحق

ومدى سلطان الدولة في تقييده ونظرية التعسف في استعمال الحق

بين الشريعة والقانون

بقلم الاستاذ محمد عمر سعيد العامودي

يحتل فقـه الشريعة الاسلامية اليوم أهمية خاصة بـين الـدراسات العلمية في مختلف جامعات الشرق والغرب بما لم يضارعه فيه أي فقه آخر .

وقد أخذ الاتجاه في الغرب يزداد الى دراسته . بعد ان تكشف لرجاله في مؤتمرات عديدة ما لمبادىء هذا الفقه من قيمة تشريعية عظيمة . وأيضا لمدى ما تنطوي عليه قواعده ومذاهبه من ثروة في المفاهيم . دعت المؤتمرين في اسبوع الفقه الاسلامي الذي انعقد في باريس منذ حقبة الى أن يوصوا بصلاحية هذا التشريع لأن يكون مصدرا من مصادر القانون العام .

على ان احتلال التشريع الاسلامي لهـذه المكانة الرحبة . وتفوقه على ما عداه يكمن بحق فيما يمكن تلخيصه فيما يلي :

أولا : ان التشريع الاسلامي تشريع سماوي من صنع الله . وليس من صنع البشر . ورغم انه جاء لاحقا للقانون فقد جاء من يوم نزوله بأحدث النظريات التي وصل اليها هذا القانون . وبأكثر مما وصل اليه .

ثانيا : ان قواعد الشريعة الاسلامية أنزلها الله لتنظيم شئون الجماعــة . ولها صفة الديمومة . فهي أبدية لا تقبل التعديل . ثابتة لا تخضع للتقييد . بخلاف القواعد القانونية ذات الطبيعة المؤقتة . والتي تخضع للتبديل والتغيير من وقت لآخر .

هذه الطبيعة التي اتسم بها التشريع الاسلامي اقتضت أن تكون قواعده ونصوصه مرنة وعامة . بحيث تتسع لحاجات الجماعة مهما طالت الأزمان وتطورت الجماعة . واقتضت أيضا ان تكون بحيث لا يمكن أن تتأخر عن مستوى الجماعة في أي وقت أو عصر . وقد أخذت دراسة الفقه الاسلامي طابعين متميزين :

الأول : اقتصر على الشريعة الاسلامية ذاتها . أي في محيطها فحسب .. في مذهب منها . أو على مذاهبها جميعا . وقد عني بهذا اللون من الدراسات أولئك الذين اقتصرت دراساتهم عـلى مواد الشريعة في كليات الشريعة والأصول .

والثاني : كان في ضوء القانون المقارن . وكانت تلك الدراسات . ولا زالت . تحظى بالعناية . وتحتل الصدارة لا في كليات الحقوق . بل وفي كليات الشريعة والأصول ليس في جامعات عالمنا العربي أو الاسلامي فحسب . بل في كل جامعات الشرق والغرب . وفي مقدمتها جامعة باريس .

وبين الوقت والوقت تطالعنا دور النشر والمكتبات بدراسات في الفقه الاسلامي لكاتبين من غير المتخصصين في علوم الشريعة والقانون . لا ترقى الى مستوى البحث الأكاديمي أو العلمي الجاد . بل هي ليست دراسة . وانما مجرد كلام عن

الفقه الاسلامي ، وليس فيها الا جهد مقل ، ربما أتى على غير مقتضى الحال والصواب .

ولا يفوتنا أن نشير ان هناك من الدراسات الأكاديمية التي ظهرت ما هو سطحي فج ، لا يرقى هو الآخر الى مرتبة البحث الجدير بالاشادة بين الدراسات التي تحتل مكان الصدارة ويستحق مؤلفوها الثناء العطر والتقدير والاعجاب . ومن هذا النوع الأخير رسالة بين أيدينا جعل مؤلفها عنوانا لها « الحق ومدى سلطان الدولة في تقييده – ونظرية التعسف في استعمال الحق بين الشريعة والقانون . » وهي رسالة تقدم بها الأستاذ فتحي الدريني ، المدرس في كلية الشريعة والحقوق بجامعة دمشق ، الى كلية الشريعة بالجامعة الأزهرية ، ونال بها رتبة العالمية « الدكتوراه » .

وقد قدم لها فضيلة الشيخ طه الديناري ، عميد كلية القانون والشريعة بجامعة الأزهر ، وقال عنها :

« لقد سلك المؤلف في بحثه هذا منهجا جديدا ، وأقامه على أساس من أصول الفقه الاسلامي وقواعده العامة ، فضلا عن الاستدلال بالكتاب العزيز ، والسنة المطهرة ، وفقه الصحابة عليهم رضوان الله ، واجتهادات أئمة المذاهب الفقهية جميعا . ولم يسبق لباحث – فيما رأيت – ان تناول هذا الموضوع الحيوي الخطير بهذه الأصالة والعمق . »

وفي مكان آخر من المقدمة يقول : « في اعتقادي ان هذا البحث فريد من نوعه ، ويعتبر فتحا جديدا للبحوث العلمية في الفقه الاسلامي منهجا وعمقا واصالة ، وأرى ان لا غنى لمراكز الثقافة الانسانية والاجتماعية والقانونية والسياسية في العالم عن الانتفاع به . »

وورد في تقرير اللجنة المؤلفة من قبل جامعة دمشق لفحص الانتاج العلمي ، والمؤلفة من الأساتذة يوسف العش ، عميد كلية الشريعة ، ومحمد المبارك ، رئيس قسم الفقه الاسلامي وقسم العقائد والأديان في كلية الشريعة ، ومصطفى الزرقاء ، رئيس قسم القانون المدني والشريعة الاسلامية في كلية الحقوق ، وماجد الحلواني ، استاذ القانون المدني في كلية الحقوق ، ما يلي :

« ان هذه الرسالة تعتبر انتاجا علميا قيما ، فيه كثير من الابتكار ، وليس فيها – على سعتها – توسع بالاستطراد الى بحوث يتضخم بها الحجم دون صلة جوهرية بالموضوع ، كما يرى أحيانا في رسائل أخرى . وقد ملأت هذه الرسالة فراغا كبيرا كان يلحظ في هذا الموضوع الهام كلما كتب فيه كاتب أو حاضر فيه محاضر ، لأنها أحاطت واستقصت أطراف البحث المتشعبة ، التي كانت زوايا مغلقة ، ففتح الدكتور فتحي اغلاقها ، ونبش ما بينها من أسس وقواعد ، وعرضها عرضا وافيا متناسقا ، فقامت نظرية كاملة ، فسرت احكام الفقه الاسلامي في كثير من مقرراته غير المفسرة ، وبينت قابلياته غير المحدودة لامداد العصور بالتشريع الوافي بالحاجات المتطورة ، ورسمت الطريق السوي للقضاء العادل في ظل الفقه الاسلامي . »

وتقع الرسالة في ٥٧٧ صفحة من الحجم الكبير ، بالاضافة الى ثبت المراجع ، وفهرس تحليلي للموضوعات . وقد قسمها مؤلفها الى قسمين ، يبحث الأول – كما يقول – في أعظم معضلة عرفها العالم في القانون والسياسة والاقتصاد ، وهي فكرة الحق وطبيعته ، بحثا علميا مقارنا في أصول الفقه الاسلامي والفقه الوضعي وتشريعاته في معظم دول العالم ، ويبين بجلاء موقف الشريعة الاسلامية من هذه الفكرة التي تعتبر مدار الصراع المحتدم في عصرنا الحاضر بين الشرق والغرب .

ويبحث الثاني بحثا علميا مقارنا نظرية التعسف في الشريعة الاسلامية والفقه الوضعي وتشريعاته في معظم دول العالم ، مبينا الدستور الذي يحكم مباشرة الحقوق بما يحقق حرية الفرد ومصلحة الجماعة

وفي القسم الأول من الرسالة قدم المؤلف دراسة عن الحق ومدى سلطان الدولة في تقييده في اطار الفقه الاسلامي ، لينتهي الى رسم نظرية عامة للحق ، مصدره ، وطبيعته ، ومداه ، وغايته ، ثم الأصول العامة التي تحكم تنسيق الحقوق عند التعارض ، ليتاح من خلال هذه الدراسة مكانة كل من الفرد والمجتمع في هذا الفقه ، ومدى سلطان الدولة وتدخلها في حقوق الأفراد . ثم انتهى الى مقارنة ذلك بطبيعة الفقه القانوني في نظر أهم المذاهب الفردية والاجتماعية .

وقد آثر المؤلف البدء أولا ببحث فكرة الحق في المذاهب الفردية والاجتماعية ، فأورد فكرة الحق في المذهب الفردي ، ثم تكلم عن أصل الدولة ووظائفها ومدى تدخلها عند الفرديين . ثم انتقل الى الحديث في فكرة الحق في مذهب التضامن الاجتماعي ، والى طبيعة حق الملكية بين المذهبين الفردي والاجتماعي ، ومدى سلطان الدولة على الحقوق في هذا المذهب .

وكما ينتقد المؤلف المذهب الفردي ، باعتباره تصوير للانسان الفطري المنعزل ، وهو لا وجود له في الواقع ، يتصدى للمذهب الاجتماعي باعتبار انه لا يقيم وزنا للمثل العليا .

وفي الفصل الثاني يتكلم المؤلف في مفهوم الحق في الفقه القانوني ، فيعرض عرضا مرتبا للمذاهب المختلفة في تعريف الحق .

ثم ينتقل في الفصل الثالث ليتكلم عن طبيعة الفقه الاسلامي وفكرة الحق فيه . وفيه يكشف عن حقيقة هذا الفقه ، فهو ليس مظهرا للارادة الانسانية المتغيرة بما يثيرها من نوازع وأهواء ، أو صدى للعوامل الاقتصادية والاجتماعية ، تقصف بالقديم من اصوله لتقيمه على أسس جديدة مناقضة لسابقتها كتعبير موقوت لتطور تلك العوامل ، بل هو فقه يستند الى أصول تشريعية سماوية مستقرة في كتاب الله وسنة رسوله الكريم .

وفي الفصول التالية يتكلم المؤلف عن الفقه الاسلامي باعتباره فقها تقويميا ، لا تقريريا ، فهو مشرّب بعناصر المثل العليا والكمال والفضيلة الانسانية ، وصلته بنظرية التعسف التي الخلقي تتجلى فيها النزعة الخلقية والاجتماعية في التشريع والحقوق التي تتقرر في ظله .

ثم يتكلم المؤلف عن مبدأ العدل المطلق في الفقه الاسلامي وصلته بنظرية التعسف ، ويؤكد هذا المبدأ من مصادره في الفقه الاسلامي ، كالاستحسان ، والاستصلاح ، وقاعدة سد الذرائع والحيل .

ويتكلم المؤلف في فصل من فصول هذا الباب عن واقعية الفقه الاسلامي ، وغايته في نظرته الى الفرد والجماعة ، ونظرة الاسلام الى المال ، وفكرة الاستخلاف ، والوظيفة الاجتماعية للانسان فيه ، وما يتبع ذلك من مسئولية الفرد والجماعة .

كذلك يتكلم عن الحق والاباحة في الفقه الاسلامي ، فيتكلم عن الفرق بين الاباحية والرخصة والحق . ويختتم هذا الباب بالكلام عن الأسس التي يستند عليها تقييد الحق في الفقه الاسلامي ، من قاعدة المصالح والتضامن ، وفكرة الخلافة الانسانية ، وصلة كل ذلك بنظرية التعسف .

اما الباب الثاني ، ففيه تكلم المؤلف عن أصل نظرية التعسف في الفقه الاسلامي .

ثم شرح لهـــذه النظرية عند الاصوليين ، وردها الى فكرة المصلحة التي شرع الحق من أجلها باعتبار أنه وسيلة وليس غاية . وقد كشف المؤلف في هذا الفصل ما يقع فيه الكثير من الباحثين عادة من الخلط بين فكرة التعسف وبين المجاوزة لحدود الحق .

ثم تكلم في أدلة النظرية من الكتاب والسنة وفقه الصحابة والأصول التشريعية والقواعد الفقهية. وفي فصول متتالية تناول معايير التعسف في نظر الفقه الاسلامي ، ومجال تطبيق نظرية التعسف ، وجزاء التعسف .

وفي الفصل الثالث قدم عرضا وافيا لنظرية التعسف في التشريعات الحديثة ، وذلك فـــي بحثين ، تكلم في الأول منهما عن النظرية في القوانين الأجنبية ، وبالذات في القانون المدني الالماني ، والقانون المدني السويسري الصادر في سنة ١٩٠٧ ، والقانون المدني البولوني . وعرض في البحث الثاني للنظرية في تقنينات البلاد العربية لكل من لبنان ومصر .

وقد تضمن هذا الفصل عرضا مقارنا للنظرية في القانون والشريعة ، وتطورات النظرية التاريخية من القانون الروماني الى القانون الفرنسي الصادر في سنة ١٨٠٤ .

وقد ورد في تقرير اللجنة المؤلفة من قبل جامعة دمشق لفحص الانتاج العلمي عن هذه الرسالة ما يلي :

ان المؤلف أبرز في خلال البحوث الآنفة الذكر أمورا هامة جدا في المقاييس التشريعية حول الفقه الاسلامي ، منها :

- ان فكرة الحق ثابتة ، وهي دعامة أساسية يدور عليها التنظيم التشريعي في الفقه الاسلامي.
- ان الحق ليس بذاته وظيفة اجتماعية ، وهذه الفكرة تترتب عليها نتائج هامة .
- ان الحق ذو طبيعة مزدوجة في نظر الفقه الاسلامي ، فليس فرديا محضا ، ولا جماعيا محضا ، بل يجمع بين الصفتين .
- ان مشروعية استعماله رهن باتجاهه نحو الغاية التي شرع كذين لتحقيقها .
- ان نظرية التعسف نظرية مشتقة لها كيان ذاتي خاص ، وليست تبعا أو تطبيقا لنظرية أخرى كالتعدي أو الخطـــأ المولـــد للمسئولية التقصيرية .
- ان معايير نظرية التعسف في الفقه الاسلامي أيسر تطبيقا في القضاء وأكثر تحقيقا للعدل .

وبعد ، فاذا كان من السهل على القارىء أن ينتقد عادة ، فان هذه الرسالة من المؤلفات التي تستعصي على النقد ، أو تكاد .

استدراك

ذكر في العدد المـــاضي ضمن مقال « ارامكو عـــام ١٩٦٧ » أن الشركة انفقت في هـذا العام ١٤٠٨٥٠٠٠ ريال سعودي عـــلى بنـاء ثلاثين مدرسة تابعة للحكومة . والصحيح أن هـــذا المبلغ انفق على تشغيل هذه المدارس وصيانتها فقط .

من تراث العرب

في وصف العصا

لقي الحجاج اعرابيا فقال له : من أين أقبلت ؟ قال من البادية . قال : وما بيدك ؟ قال عصا أركزها لصلاتي وأعدها لعداتي ، وأسوق بهـــا دابتي ، وأقوى بها على سفري ، وأعتمد بها على مشيي ليتسع بها خطوي ، وأبث بها النهر فتؤمنني ، وألقي عليها كسائي فيسترني من الحر ويقيني من القر ، وتدني ما بعد مني ، وهي محمل سفرتي ، وعلاقة أدواتي ، ومشجب ثيابي ، وأعتمد بها عند الضراب ، وأقرع بها على الأبواب ، وأتقي بها عقور الكلاب ، تنوب عن الرمح في الطعان ، وعن الحراب عند منازلة الأقران ، ورثتها عن أبي ، وأورثها بعدي ابني ، وأهش بها على غنمي ، ولي فيها مآرب أخرى كثيرة لا تحصى .

حسن البيان يستوجب الاحسان

دخلت أعرابية على عبد الله بن أبي بكرة بالبصرة بين السماطين وقالت : أصلح الله الأمير وامتع به ، حدرتنا اليك سنة اشتد بلاؤها وانكشف غطاؤها . أقود صبية صغارا أو آخرين كبارا في بلدة شاسعة تخفضنا خافضة ، وترفعنا رافعة للمات من الدهر برين عظمي ، وأذهبن لحمي ، وتركنني والهة أدور بالحضيض ، وقد ضاق بي البلد العريض ، فسألت في أحياء العرب : من الكاملة فضائله ، المعطي سائله ، الكفي نائله ! فدللت عليك ، أصلحك الله تعالى ، وأنا امرأة من هوازن ، قد مات الوالد ، وغاب الرافد ، وأنت بعد الله غياثي ومنتهى أملي ، فافعل بي إحدى ثلاث خصال : اما أن تردني الى بلدي ، أو تحسن صفدي ، أو تقيم أودي . فقال : بل أجمعهن لك . فلم يزل يجري عليها كما يجري على عياله ، حتى ماتت .

احمد الله تعالى على ما انت فيه

جاء اعرابي الى عبد الملك بن مروان . فقال له عبد الملك : تكلم بحاجتك يا اعرابي : قال الأعرابي : يا أمير المؤمنين ، جلال الدرجة وهيبة الخلافة يمنعانني من ذلك . فقال عبد الملك : على رسلك يا أعرابي ، فانا لا نحب مدح المشاهدة ولا تزكية اللقاء . قال الأعرابي : أنا لست أمدحك يا أمير المؤمنين ولا أزكيك ، ولكنني أحمد الله تعالى على النعمة فيك .

رب كلمة جلبت نعمة ، وكلمة جرت نقمة

دخل النابغة على النعمان بن المنذر فقال :

تخف الأرض أن تفقدك يومـــا
وتبقى مـــا بقيت بهـــا ثقيـــلا

فنظر اليه النعمان نظر الغضبان ، وكان كعب ابن زهير حاضرا فقال : أصلح الله الملك ، ان مع هذا البيت بيتا ضل عنه ، هو :

لأنك موضع القسطاس منهـــا
فتمنـــع جانبيها أن تميـــلا

فضحك النعمان ، وأمر له بجائزتين .



الطائف

للشاعر انور العطار

حي في الطائف الربيع الدائم   ان بدا برعم تلته براعم
هو في الروض زينة تخلب اللب   وما الروض غير روح حالم
وهو في القلب فرحة تغمر القلب   كأن الربيع خل موائم
يا أمير الربا ويا شاعر الدوح   ويا مدمع الهيام الساجم
أنت في الفكر جدول يتندى   وابتسام ينسيك حسن المباسم

حي في الطائف الربيع الموشى   بأفانين من خيال ناعم
بضروب من الشحارير هيمى   حانيات على غصون هوائم
حي في الطائف الأناقة واللطف   وطف بالحمى الأليف الملائم
بلد الزهر جل من أبدع الزهر   وأحياه في جفون الكمائم
تتراءى عيون نرجسه الغض   صحاحا وهي السواهي السواهم
وتلوح الخدود في نضرة الورد   اذا عل من دموع الغمائم
وثمار النعيم رف سناها   كالـلآلي فرائدا وتوائم
يا لها روضة تتيه على الروض   وتفتر عن ثغور بواسم

حي في الطائف البيان المصفى   كالرحيق المجود المتقادم
بلد الشعر عز من علم الشعر   وما الشعر غير دمع المراحم
يا لسان الهوى اذا عي بالقول   ويا عرفه الذكي الفاغم
أنت صورته وبينت مغزاه   ونوهت بالحبيب الظالم
ان تشكى جراحه داميات   فبألفاظك الرقاق المراهم
أو تناءى الربيع كنت يد الخصب   فيا موسما شأوت المواسم
أنت حادي العصور وهي توالى   أنت رمز العلا وسر العزائم

يا مصيف الهوى عليك سلام   من فؤاد على ربوعك حائم
شغل القلب منك حب قديم   حسبي الحب فهو شغل دائم
فاقرأ الشوق في عيون القوافي   ان للشوق في العيون علائم

لقاء مع لفيف من أدباء العاصمة وشعرائها في ندوة حول :

الشعر بين المضمون والقالب

دأب عدد من شعراء العاصمة وكتابها على الالتقاء ليلة كل جمعة في بيت الأديب الأستاذ عبد العزيز الرفاعي في مدينة الرياض، في ما يشبه الندوة الأدبية ، بل الصالون الأدبي يحتفون فيه بنتاج جديد لأحدهم فيقيمونه وينتقدونه ، أو يطرحون على بساط البحث قضية أدبية مهمة ، أو يكملون نقاشا لم ينهوه في ندوة سابقة ، فيوثقون بذلك روابط الألفة فيما بينهم ، ويكونون على اتصال دائم بدنيا الكلمة الجميلة الموجهة ، التي تعطي للأديب قيمته الفريدة وللعمل الأدبي سمته المميزة ، ويشاركون بالتالي في اغناء الحركة الأدبية العربية ، ودفعها الى الأمام بالجهود الصادقة والأماني الكبيرة .

وفي ليلة جمعة ، وتمشيا مع ما درجت عليه «قافلة الزيت» من عقد ندوات جادة في مختلف مناطق المملكة ، ونشرها تعميما للفائدة ، أتيح لنا أن نلتقي مع عدد من الأدباء في ندوتهم الدورية تلك .. كانوا ثمانية ، هم : الدكتور فوزي هنانو ، والأساتذة عبد العزيز الرفاعي ، وعبد الله ابن ادريس ، وحسن عبد الله القرشي ، وعلي حسن فدعق ، وماجد أسعد الحسيني ، وأحمد طاشكندي ، وعبد العزيز عبد الله الربيعي . وكان السيد خالد نقشبندي مستمعا ، كما انضم الى الندوة فيما بعد الأستاذ أحمد عمر عباس. ولأن الندوة ضمت أكثر من شاعر ، ارتئي أن يكون الشعر موضوعها ، فطرحت أسئلة ، وامتدت مناقشات ، وكان الأستاذ الرفاعي بأريحيته ودماثته ، وحديث الشعر بأنسه ورقته يضفيان على المكان بهاء ورونقا .. وكانت هذه الندوة .

* حضرات الأدباء ، هل الشعر حقا لون رفيع من ألوان التعبير الأدبي ؟

حسن عبدالله القرشي : في رأيي أن الشعر هو أرفع ألوان التعبير الأدبي اطلاقا ، لأنه يصور نبضات النفس الانسانية بصدق وحرارة وانفعال ، ولأن الشاعر اذ يصور مشاعره فانما يعبر عن مشاعر الآخرين .

عبد الله بن ادريس : انني متفق مع الأستاذ القرشي على أن الشعر هو أرفع ألوان التعبير عند العرب ، لكن قوله بأن الشاعر عندما يعبر عن نفسه انما يعبر عن مشاعر الآخرين ضرب من التعميم لا ينطبق على جميع الشعراء . فالشاعر الذي ينفعل بالتجربة المعاشة ، هو الذي يعبر عن مشاعره وعن مشاعر الآخرين ، بينما الشاعر الذي يفتعل التجربة لا يعبر الا عن نفسه ، وربما بشكل باهت ، بل نستطيع أن نقول انه ربما يعجز حتى عن ذلك .

حسن عبدالله القرشي : في الحقيقة لسنا مختلفين في هذا ، لأن الشاعر الذي لا يصدر شعره عن انفعال بالتجربة ، يكون فاقدا لعنصر الصدق الفني ، وهو بذلك لا يسلك في عداد من نقصد من الشعراء .

علي فدعق : نعم ، هو ذلك . انما يبدو لي أن الأستاذ حسن متحمس للشعر أكثر من غيره . فأنا أعتقد بأن النثر الفني والقصة هما كذلك لونان



عبد الله بن ادريس : الشعر هو أرفع مستويات التعبير الأدبي .



عبد العزيز الرفاعي : بالنقد الموضوعي الفعال يمكن تحقيق مستوى أفضل من حيث تذوق الشعر لدى جمهرة القراء .

حسن عبد الله القرشي : اننا نتجنى على الشاعر عندما نطلب منه أن يصور ما نمسه نحن من احساسات ، لا ما يمسه هو ذاته .

علي حسن فدعق : المفروض أن يكون نظم الشعر وفقا للظروف وعلى مستوى الأحداث .

من أروع الألوان في تصوير المشاعر الانسانية ونقلها ، ورسم الانفعال بانطلاق لا تحد منه القيود الشعرية ، وخاصة الشعر العمودي . فربما يستطيع كاتب أن يعبر بمقال أو قصة عن تجربة ما ، بحيث يكون أعمق انفعالا ، وأجمل تعبيرا ، وذلك لتلاشي القيود . وينطبق هذا على المسرحية أيضا ، وخصوصا في الأدب الحديث . ولكني معكم في أن الشعر كان حقا أروع ألوان التعبير الأدبي عند العرب ، وذلك يوم كانت له أسواقه ، ويوم كانت القبائل تفاخر بشعرائها أكثر من كتابها .

* هل أستنتج مما يقوله الأستاذ فدعق أن الشعر في العصر الحديث أصيب بنكسة جعلته يتردى الى مستوى النثر أو دونه ؟

علي فدعق : لا .. لم يصب الشعر بنكسة، ولكن لم يعد لـه ذلك التأثير على مشاعر الجماهير ، كما هو الحال في مقالة، أو قصة، أو مسرحية .. مثلا .

فوزي هنانو : الشعر في الواقع عبارة عن شعور كامن في النفس ، ولما كانت طبيعة الشاعر تستوجب أن يسبح أحيانا في خيال ، هو على بعده من واقعية الأشياء ، مفعم بحقائق لا تكهنية ، ولكنها ملهمة تأتي بالعجب العجاب ان هي صدرت عن روح قد ذكت نارها ، وكانت في البدء مختمرة غير مشوبة بانطلاقات شعورية — لما كانت طبيعة الشاعر كذلك فان وجدانه الأصيل يأتي بالأفكار الرقيقة المنبعثة عن فطرة سليمة ، أكسبها جو المكان والظروف الزمنية حنكة وخبرة فائقتين . ولذا فانه بامكاننا أن نقول أن الشعر يعتبر من الأدب الرفيع ، ولو أن في طبيعة النثر ما هو رائع على صورة تتقدم على الشعر في كثير من الحالات .

ماجد الحسيني : أوافق على ما قاله الدكتور هنانو ، واذا كان الشعر يعبر عن التجربة بصدق ، ويعكس الانفعالات ، فذلك يجعله لونا رفيعا من ألوان التعبير الأدبي ، وفيما عدا ذلك — كما مر في بعض حقب التاريخ — فلا يمكن أن نعده الا نظما ؛ وشتان ما بين النظم والشعر .

عبد العزيز الربيعي : الشعر في رأيي ، أخلد من النثر ، واذا رجعنا الى التاريخ وجدنا الدليل . أما الاختلاف حول ادراج العمل الشعري في ميدان الشعر أو عدمه ، فان المتنبي يقول في هذا المعنى :

ان بعضا من القريض هذاء
ليس شيئا ، وبعضه احكام

عبد الله بن ادريس : أنا أخالف الدكتور في أن هنالك صنفا من النثر يتجاوز مستوى الشعر ، فالشعر ، هو أرفع مستويات التعبير الأدبي .

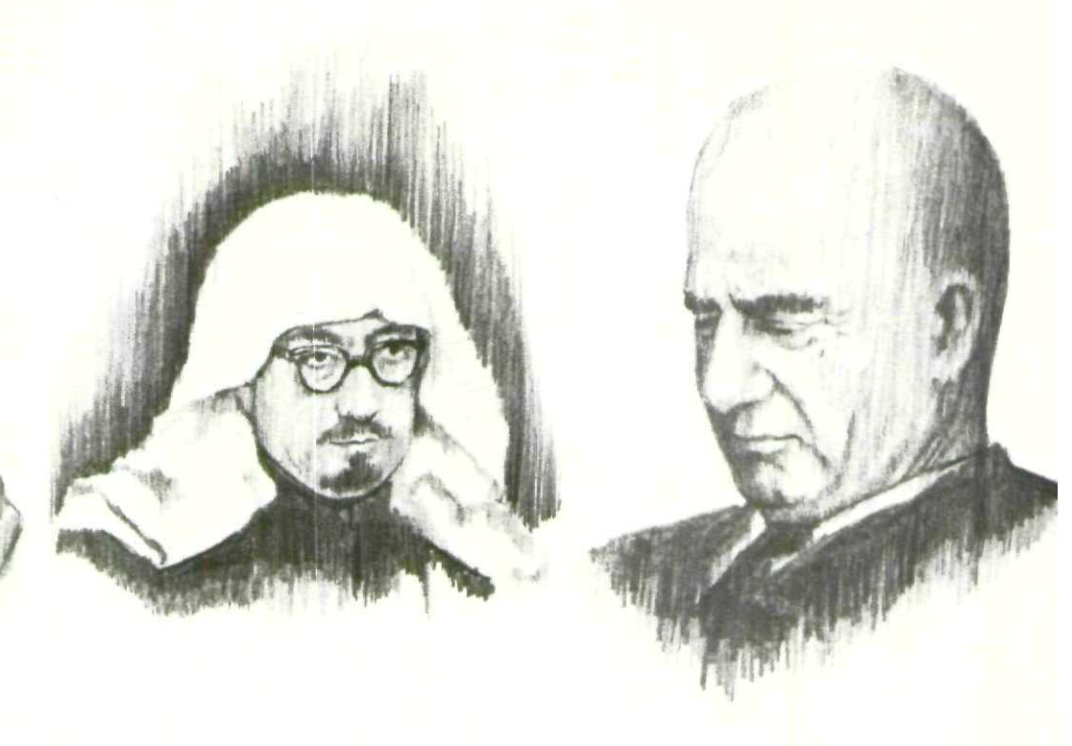
أحمد طاشكندي: أؤيد رأي الأستاذين القرشي وابن ادريس في أن الشعر هو أرفع ألوان الأدب ، بدليل أنني عندما أقرأ قصيدة ما ، أنفعل أكثر مما أقرأ أي مقال ، وبدليل أنني أحتفظ بالقصائد الشعرية التي تجذبني ، وأعود اليها ، رغم اتجاهي العلمي الاقتصادي من ناحية عملية .

* أؤيد الأستاذ طاشكندي فيما ذهب اليه ، فأنا أرى أنه ، باستثناء القرآن الكريم ، معجزة البيان والبلاغة والفصاحة وكنزها الخالد ، وباستثناء صحاح أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا يمكن للنثر أن يصل الى مستوى الشعر الحق ، مهما بلغ من السمو والرفعة .. ذلك لأن الشعر حصيلة الشعور والتجربة الصادقة تقدمها لنا قرائح الشعراء بموسيقاها وبلاغتها وفصاحتها ومتانتها كلا متكاملا ، بينما النثر قد يخلو من كل ذلك عدا الفصاحة والبلاغة ، الأمر الذي يقضي بوضعه في مرتبة أدنى . ولا يفوتنا أن نذكر أننا عندما نهتز لنثر جيد فريد ، متميز ، نهتف مستحسنين : « انه والله كالشعر ! » .

عبد العزيز الرفاعي : أنا لا أشك مطلقا في أن الشعر هو أرفع ألوان التعبير الأدبي ، لأن الشعر معاناة فنية لا يتيسر مثلها لبقية ألوان التعبير الأدبي . فالشاعر الحق لا يمكن أن يصدر شعره الا عن مشاعر عميقة يتخير لها اللفظ الأنيق والاطار الجميل، ويصطاد الأخيلة والأفكار البعيدة ليقدمها صورا فنية رائعة . أما فيما يتعلق بمسألة الخلود ، فأنا أرى أن الشعر أخلد من النثر وأجرى على الألسنة وان كان لي تعليق يسير على بعض ما سمعته ؛ إذ في قدرة بعض الانتاج النثري أن يسمو على الشعر ، ويكون ذلك في حالات نادرة لا تبطل التعميم .

* هل للسادة الأدباء أن يتحدثوا الينا عن القصيدة الحديثة بين القالب والمضمون ؟

حسن عبد الله القرشي : في اعتقادي أن القالب الذي يؤدي شحنة الشعر لا ينبغي أن يكون موضع



الدكتور فوزي هنانو : في طبيعة النثر ما هو رائع على صورة تتقدم على الشعر في بعض الحالات .

ماجد الحسيني : تتسم الصورة الشعرية الواضحة بصدق الانفعال الذي تتولد عنه .

أحمد طاشكندي : القصيدة أقدر على التأثير في النفس من المقال أو القصة .

خلاف ، سواء أتى في صورة الشعر العمودي ، أو في صورة الشعر غير العمودي (شعر التفعيلة الواحدة) .

فاذا أعطانا الشاعر تجربة نابضة في أحد هذين القالبين ، فلا أعتقد أنه من المستحسن أن نعرقل نهجه الشعري . ويقول شوقي في هذا المعنى :

الشعر صنفان ، فباق على
قائله أو ذاهب يوم قيل
ما فيه عصري ولا دارس
الدهر عمر للقريض الأصيل

وكثير من الشعر العمودي يهزنا هزا عميقا ، كما تهزنا أيضا نماذج رائعة من الشعر الحديث .

عبدالله بن ادريس : أرى أنه يجدر بالقصيدة الحديثة أن تعبر عن خلجات الانسان وأحاسيسه في معترك الحياة التي يحياها . هذا من حيث المضمون ، وأما من حيث الشكل فسيان عندي أكانت القصيدة عمودية أم كانت حرة ، ما دامت تعتمد على التفعيلة في أساسها الموسيقي .

أحمد عمر عباس : تعجبني القصيدة العمودية الزاخرة بالمعاني ، والتي تحلق بنا في أجواء تبعدنا عن الواقع اليومي . وهذا ، في رأيي ، من مميزات الشعر الحق . ان القصيدة الجميلة تؤدي نفس المفعول الذي تؤديه المقطوعة الموسيقية الجميلة .

علي فدعق : تتوقف قيمة القصيدة مهما كان نوعها من حيث انتسابها الى الأدب الرفيع ، على مدى نقلها صورة انسانية أو انفعالا خاصا ، سواء كان عاطفيا أو حماسيا أو غير ذلك . فالقصيدة الغزلية مثلا تثير في نفس القارىء الخيال الرقيق ، والقصيدة الحماسية أيضا تثير انفعالا آخر ، وهكذا . أما من حيث المضمون فان المفروض هو أن يكون نظم الشعر وفقا للظروف وعلى مستوى الأحداث اليومية التي يتفاعل الشاعر معها .

عبدالعزيز الرفاعي : يجب أن ينبع مضمون القصيدة من وجدان شاعرها . وأما القالب الشعري فيفترض فيه فنية الاداء وسلامته . فاذا كان الشاعر عموديا ، واستطاع أن يحلق بقصيدته ، فبورك به من شاعر . واذا كان حديثا ، وأنا أشترط هنا ضرورة الاحتفاظ بالموسيقى الأدائية (التفعيلة) ، فاننا نرحب به وبطريقة أدائه .

حسن عبدالله القرشي : الشاعر فرد من بيئته . وبطبيعة كونه شاعراً ، لا بد وأن ينفعل مع الأحداث ، انما ليس المفروض أن نجعل من الشاعر بوقا نطلب منه أن يصور ما نحسه نحن ، لا ما يحسه هو ذاته ، لأن ذلك تجن عليه . وأنا مثلا رغم أنني أرفض فكرة الضغط على الشاعر من الخارج ، أصدرت بحكم الاحداث التي تمر بها أمتنا ديواني « لن يضيع الغد » تعبيرا عما تركته الأحداث في نفسي .

علي فدعق : اذن ، يتفق معي الأستاذ القرشي في أن انفعالاته كانت صدى للأحداث ، ولذلك أصدر ديوانه المذكور ، كما أصدر الشاعر أحمد قنديل ديوانه « نار » من وحيها أيضا . وهذا هو الطريق الذي يجدر بالشعر أن يسلكه في مثل هذه الظروف .

※ أرى ما ارتآه الأستاذ القرشي أن القول بأن نظم الشاعر يجب أن يكون وفقا للظروف وأحداث الساعة ، يحتم على شعراء الأمة أن يتحولوا بحسهم ووجدانهم في الظروف العصيبة الى الأحداث ليكونوا شارحيها ومبرزيها ومصوريها ، وأن ينبذوا جميع أبواب الشعر ما عدا ذلك في تلك الظروف .

ولأن الشعر شعور في أسمى صوره وأعلى مراتبه ، مقولب بقالب من صور وظلال وأنغام ، فان هذه الدعوة تقضي بأن نعطل احساس الشعراء وقدراتهم التعبيرية من جملة نواح لنكرسها في ناحية واحدة ، الأمر الذي يبدو وكأنه من باب الالزام المفرط ، وذلك لأن الشاعر الصادق ، ضمير أمته ، سيعبر عن ظروف تلك الأمة حتما ، ولكنه لا يمكن أن يغفل ولو شعوريا – وبالتالي شعريا – أنه يحيا ، فيفرح ويحزن ويتألم وييأس ويكابر ويتسامح .. الخ ، شأن كل الأحياء .

عبد العزيز الرفاعي : عودة الى القصيدة الحديثة ، أعتبر أن بعض النزعات التي سرت في شعرنا العربي مؤخرا « كالرمزية » ، والخروج عن القالب والشكل والقافية مجرد بدع مقضي عليها بالفناء . وأورد تدليلا على ذلك قصة تروى عن الشاعر الانجليزي « روبرت براونتج » ، اذ نظم مرة « قصيدة » دون أن يستعمل فيها الأفعال ، وجرى فيها على النهج الذي نراه الآن في شعر الرمزيين والشعراء المنحرفين عن القاعدة الشعرية . ومع أن الصحف احتفت بالقصيدة آنذاك ونشرتها نظرا لمكانة الشاعر ،

فانه صرح في مقال نشره بعد ذلك بأنه تعمد عندما نظم تلك القصيدة ، أن يعبث ، اذ جردها من كل فكرة يستند اليها أي عامل فني .. أي أنه رص ألفاظها الى جانب بعضها بلا معنى ولا مضمون . وحتى زوجته ، وهي الأخرى شاعرة ، قالت له حين قرأتها : « انني لا أدري يا عزيزي عم كنت تتحدث في قصيدتك تلك . » (١)

* أرجو أن يتكرم الأدباء الأفاضل باعطائنا فكرة عن الصورة الشعرية من حيث مقومات تركيبها اللغوي (الكلمة الشعرية) ؟

ماجد الحسيني : تتسم الصورة الشعرية الواضحة بصدق الانفعال الذي تتولد عنه . ويكون لتضلع الشاعر لغويا وثقافيا كبير الأثر في نجاح تكوينها .

حسن عبد الله القرشي : يستطيع الشاعر المكتمل الأداء أن يعطينا الصورة الشعرية بثوب قشيب من الألفاظ المعبرة الموحية . وغالبا ما يبتعد اداؤه عن الألفاظ الشعرية الناشزة .



عبد العزيز الربيعي : الرمزية ، والخروج عن القالب والشكل والقافية مجرد بدع مقضي على بعضها بالفناء .

كاتب المقال : هنالك فرق كبير بين الالتزام ، والالزام المفرط .

عبد الله بن ادريس : أرى أن الصورة الشعرية يجب أن تكون في القصيدة بكاملها بحيث أشعر وأنا أقرأ القصيدة انني ازاء لوحة فنية بكامل ألوانها وظلالها . وأنا لا أؤمن بأن هنالك صورة شعرية جزئية ، بل أؤمن بالصورة الشعرية المتكاملة .

* الى ماذا يعزى تدفق دواوين الشعر ، وتهافت الشعراء على اصدارها في العصر الحديث ؟

حسن عبدالله القرشي : أنا أخالفك بهذا الخصوص ، اذ أننا لو قارنا الانتاج الشعري في العالم العربي بالانتاج النثري ، لوجدنا أن النثر يبلغ أضعاف أضعاف الشعر .

عبد الله بن ادريس : أرى أن الشعر راكد ، وأحب أن أضيف أن الشعراء المحدثين أصبحوا يقسمون شعرهم في دواوين صغيرة ، ليفرضوا بذلك وجودهم على القراء عن طريق التكرار .

علي فدعق : ان سوق الشعر قد تكون رائجة . ولكن الى أي حد يمكننا أن نعتبر ما ينشر غثا أو سمينا ؟

عبد العزيز الربيعي : غدا الشعر في الأعم الأغلب تجارة ، ونجد الدليل على ذلك في كثرة ما تصدره المطابع من دواوين . ويعزى ذلك الى أن بعض الناشرين لا يقيمون الشعر بموازين دقيقة ، وانما يسعون الى الربح المادي ، ومثلهم بعض الشعراء أيضا . الا أن هنالك بعض الشعراء الذين لهم مكانة فنية جيدة ، ولكن لأن القارىء العربي غدا راغبا عن قراءة الكتب الكبيرة ، استطاع هؤلاء أن يستميلوه الى قراءتهم بتقسيم شعرهم في مجموعات صغيرة سهلة التناول .

عبد العزيز الرفاعي : يمكن أن أضيف شيئا آخر ، وهو أن أسلوب الشعر الحديث سهل على الكثيرين من غير الشعراء أن يرصفوا الكلمات كيفما اتفق ، ويطبعوها باسم الشعر الحديث .

* كيف اذن نرقى بقراء الشعر الى مستوى الشعر الحق ؟

عبد الله بن ادريس : بالتعليم والثقافة الواسعة .

احمد طاشكندي : بأن تتولى الكليات والمعاهد والمدارس الأدبية ، دراسة أصول الشعر واختيار نماذج جيدة من مختلف مدارسه وتثبيتها في مناهجها . وكذلك بأن تتولى وسائل الاعلام المختلفة تقديم مختارات منه تجذب الجمهور اليه . ونتيجة لذلك يمكن أن تعود العلاقة بين الشعر وجمهوره قوية متينة .

عبد العزيز الرفاعي : وبالاضافة الى ذلك تجنيد النقد الموضوعي الفعال لتمييز الغث من السمين من الشعر ، وبالتالي تحقيق وجود مستوى أفضل من حيث تذوق الشعر لدى جمهرة القراء .

* ما هي مراحل نمو التجربة الشعرية ؟

ماجد الحسيني : مراحل نمو التجربة تبدأ بالاحساس ، ثم التفاعل الناجم عن قوة ذلك الاحساس ، ثم تختزن حتى يتم لها أن تظهر شعرا .

حسن عبدالله القرشي : عوامل الفرح والحزن والدهشة والخيبة هي بواعث التجربة الشعرية في نفس الشاعر . ومنظر طفل بائس ، أو امرأة ثكلى ، أو وردة جميلة يولد في نفس الشاعر شرارة الشعر ووهجه ، فيبدأ بتسجيل التجربة واعطائها حقها في الحياة .

عبد الله بن اريس : عندما يحس الشاعر بالتجربة أو المنظر ، تتفاعل في مخيلته شتى الأحاسيس والمشاعر ، فتتولد في نفسه الطاقة الكامنة للتعبير عن هذه الأحاسيس .

عند هذا الحد ، وكان الحديث قد امتد طويلا جادا ومرهقا ، أصبحت المناقشات ميالة الى الابتسار والسرعة ، ولذا فقد ارتئي أن ننهي ندوتنا هذه على أمل أن نعود الى القراء في ندوات قادمة ، ان شاء الله .



(١) أضاف الأستاذ الربيعي هذه الحكاية مؤخرا بعد انتهاء الندوة .



الاستعمـــــــــــالات الرئيسية لمنتجات الزيـــ

استعمـــــــــــالات أخرى لمنتجات الزيـــــــــــت

وقود الولاعات = بنزين السيارات

وقود الديزل

زيت الوقود

التكسير

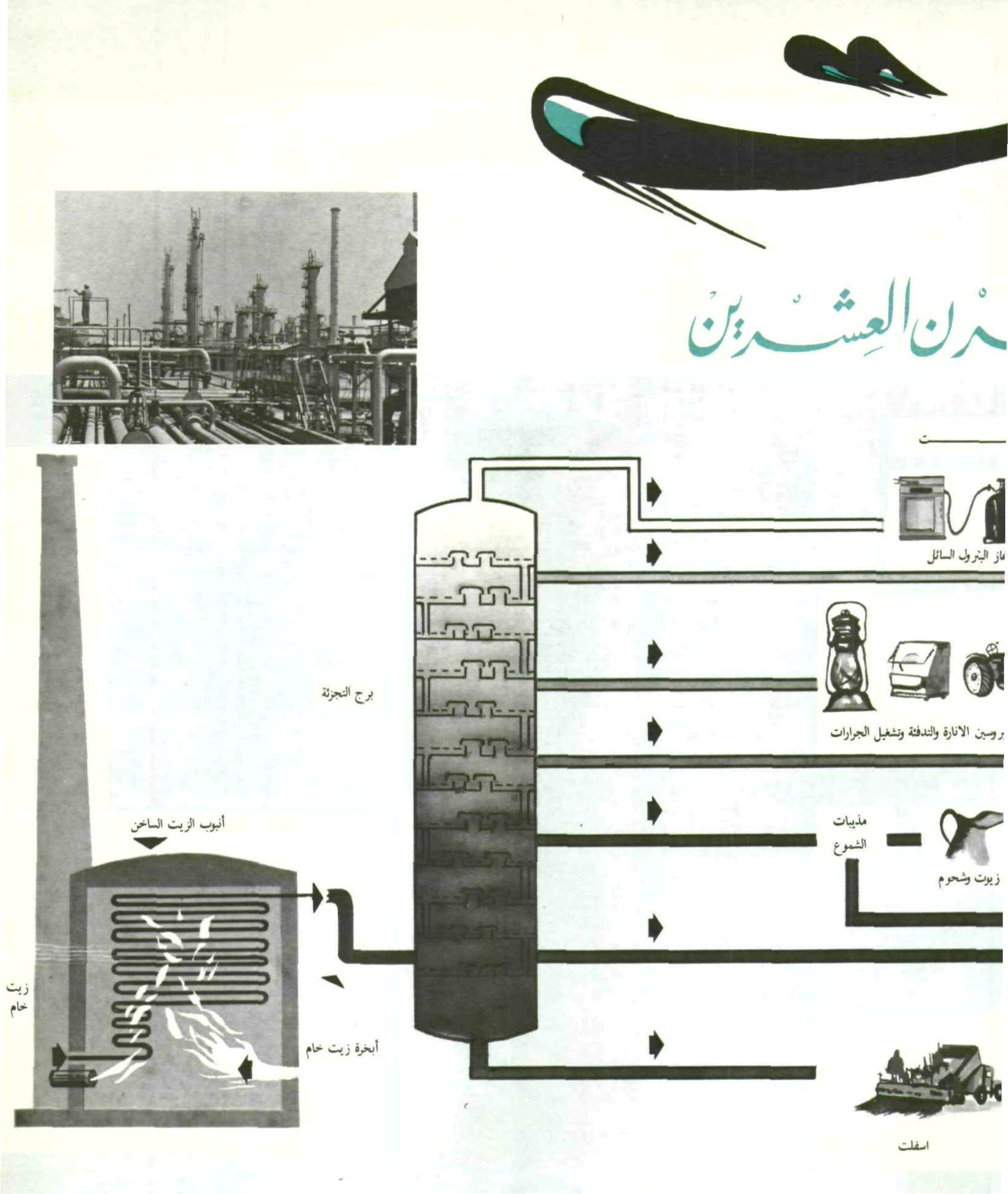
مبيدات الحشرات
مذيبات الأصباغ
كيروسين النفاثات

منظفات
أصباغ خزفية
نايلون
أدوية

أنسجة اصطناعية
مطاط اصطناعي
لدائن
مبيدات الأعشاب

مراهم وكريمات
ملمعات
ورق مشمع
شموع

مواد تغليف الأنابيب
مواد وقاية للسقوف
أصباغ واقية



رسم يبين برج التقطير المقسم الى طبقات عديدة ، والخاص بفصل مواد الزيت بعضها عن بعض ، والاستعمالات الرئيسية لها .

عرف الانسان النفط منذ فجر التاريخ ، غير أنه لم يحاول استغلاله على نطاق واسع الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . فقد أوضح علماء الآثار أن بناة المدن القديمة كانوا يستعملون القار في رصف الطرق ، وفي تثبيت طوب الأبنية وحجارتها . كما كان قدماء اليونان والرومان يستعملونه في طلاء عجلات عرباتهم .

ويرجع المؤرخون الى سفينة نوح ، عليه السلام ، قد بنيت من ألواح خشبية طليت من الداخل والخارج بالقار . كما يذكرون أن شرفات حدائق بابل المعلقة كانت تطلى به ، وأن الهنود الحمر والصينيين والمصريين القدامى استعملوا النفط كدواء يشربونه ، ويمسحون به على جروحهم . وأنهم كانوا يعبئونه في زجاجات خاصة ، لاستعماله في مثل تلك الأغراض .

وبالاضافة الى ذلك استخدم النفط لأغراض حربية ، فكانت السهام تغمس به ، لتنطلق فوق حوائط المدن المحاصرة ، فتمعن فيها حرقا وتدميرا . وكذلك استخدم للإنارة ، بيد أنه كان يعتبر من الكماليات التي لا يقبل عليها الا علية القوم .

كان النفط في بعض المناطق يتسرب من باطن الأرض الى سطحها ، كما كان يطفو على سطح المجاري المائية . وفي منتصف القرن التاسع عشر كان يكشط من سطوح البرك وشواطيء البحيرات في كثير من بلدان العالم ، ويصنّع لاستخراج زيت صالح للانارة منه ، وكان قد أنشيء حتى ذلك الوقت ما يقارب من خمسين معملا لتصنيع البترول المتجمع بتلك الطريقة في الولايات المتحدة وحدها ، بالاضافة الى معامل مماثلة في كثير من بلدان أوروبا .

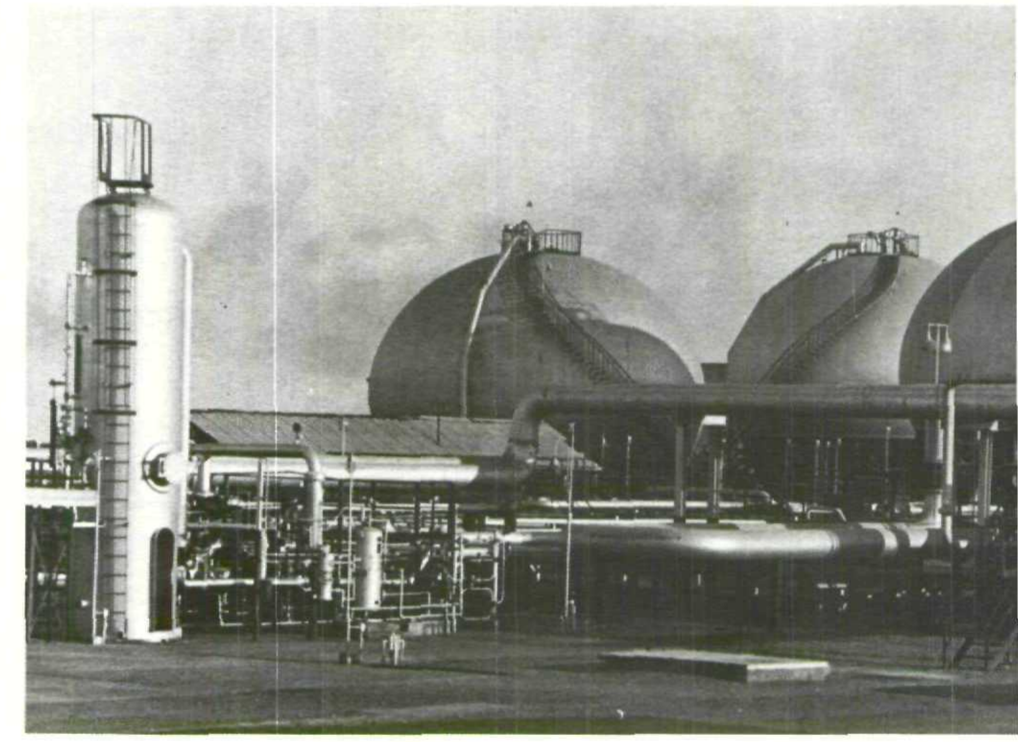
ثم أخذ الطلب على زيت المصباح يتزايد باستمرار ، مما دفع المعنيين بتصنيع البترول الخام الى الحصول على المزيد منه ، الا أن فكرة حفر بئر للوصول الى مصدر الزيت المتسرب الى السطح لم تخطر على بال أحد الا في أواخر العقد السادس من القرن الماضي ، فكان ذلك إيذانا بمولد صناعة الزيت التي بدأت بعد ذلك تتوالى فصول قصتها فصلا فصلا ، فكان لها تأثير واضح في تطوير حياة الانسان ، وبناء صرح حضارته .

كان أول من أخرج فكرة حفر بئر للزيت الى حيز الوجود « ادوين دريك » الأمريكي ، وقد بدأ عمله في صناعة الزيت منذ أيامها الأول ، عندما أنيط به أمر تنظيم عمليات كشط البترول المتسرب أو الطافي فوق سطح الماء في حقول كان يملكها « جورج بيسل » ، أول أمريكي أنتج الكيروسين بكميات تجارية محدودة . فأخذ « دريك » يوسع الحفر التي يصب فيها الزيت ، ويبتكر حواجز جديدة للكشط أكثر فعالية مما كان يستخدم سابقا . الا أنه ضاق ذرعا بعمليات الكشط ذات الانتاج المنخفض ، وشرع يبني أول برج للحفر عرفه تاريخ هذه الصناعة المعقدة .

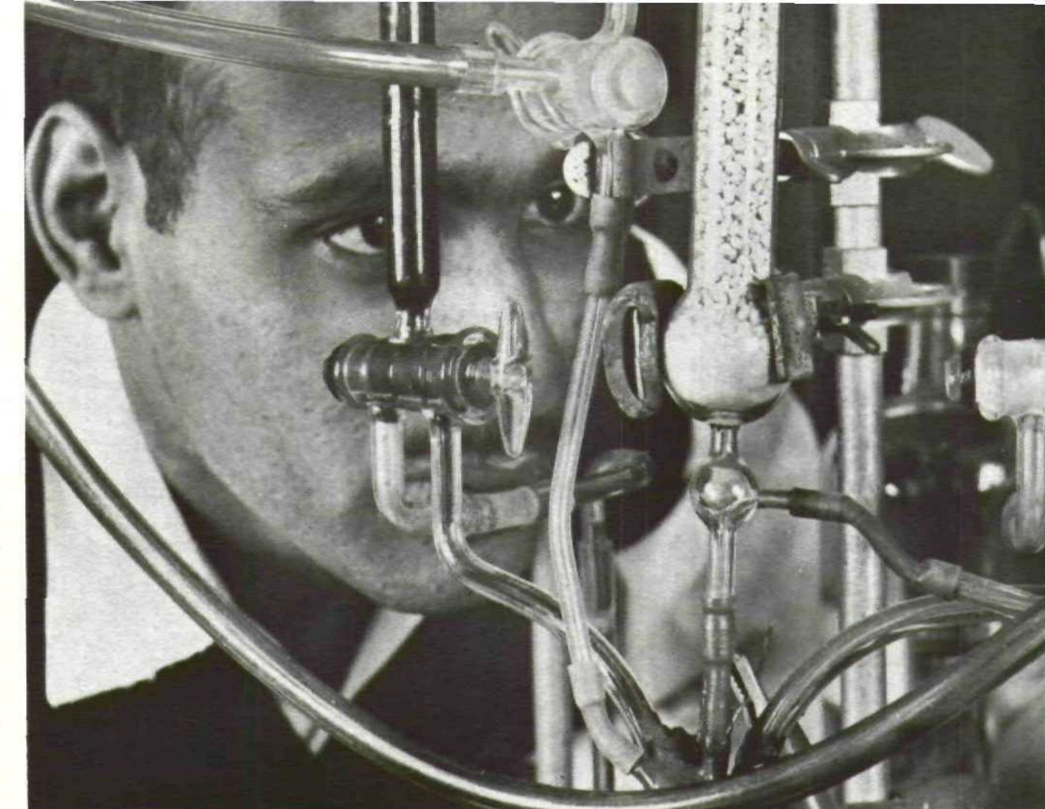
صنع « دريك » برجه من الخشب ، وثبت في قمته من الداخل بكرة يدور حولها حبل يستعمل لرفع آلات الحفر وانزالها في البئر ، وكانت هذه الآلات تتألف من منجنيق للحفر يرتفع وينخفض بواسطة قضيب من الحديد ، يحركه محرك بخاري . كان الجهاز بسيطا للغاية ، وقد أثار سخرية المعنيين بصناعة الزيت آنذاك ، الا أن « دريك » ظل مثابرا على عمله ، يحفر ، ويبطن بئره بالأنابيب خشية انهيار جدرانها ، الى أن توصل الى أحد المكامن البترولية على عمق ٢٠٫٧ مترا ، وذلك في أغسطس عام ١٨٥٩م ، بعد أن قضى مدة شهرين متتالين في عمل مضن متواصل . وعلى الرغم من أن انتاج تلك البئر كان يتراوح بين (١٥ و ٢٠) برميلا كل يوم ، الا أنها كانت نقطة تحول واضحة في تاريخ صناعة الزيت . فقد نفشت أخبارها في كل ناحية من الولايات المتحدة الأمريكية ، واندفع نتيجة لذلك رجال الزيت يحفرون آبارا مماثلة ، وانكب العلماء والمهندسون على تصميم معدات أفضل للحفر ، وتشكلت عشرات الشركات التي تعنى بالتنقيب عن الزيت واستخراجه . وتطورت أعمال التصفية ، فغدت معامل التكرير تعمل ليل نهار لإيجاد مشتقات مستحدثة منه تواكب التقدم العلمي . ومدت خطوط الأنابيب لنقل الزيت من أماكن انتاجه الى أماكن شحنه ، كما بنيت ناقلات الزيت التي تحمله الى الأسواق العالمية . وهكذا أصبحت صناعة البترول من أهم الصناعات في القرن العشرين .

منتجات الزيت الخام

الزيت الخام سائل أسود اللون ، كريه الرائحة ، يكاد يتكون كلية من عنصري الايدروجين والكربون . وهو يختلف باختلاف الحقول التي يستخرج منها ، فمنه المر ، الذي يحوي نسبة عالية من غاز كبريتيد الأيدروجين السام ، ومنه الحلو الذي يحوي نسبة ضئيلة جدا منه . والزيت الخام المستخرج من آبار الزيت لا يصلح للاستعمال دون تصنيع وتكرير . وتنقسم منتجات



جانب من أحد معامل فرز الغاز من الزيت التابعة لأرامكو في المملكة العربية السعودية ، حيث تتم أولى مراحل صناعة الزيت المعقدة .



تتعرض منتجات الزيت لسلسلة من الفحوص المختبرية للتأكد من مطابقتها للمواصفات المطلوبة ، والصورة لفني في أحد مختبرات أرامكو .

مـواد الوقـود

يستعمل معظم الزيت ، الذي ينتجه العالم كوقود ، لتوليد القوة في المحركات ، أو لتوليد الطاقة الحرارية أو النور في المصانع والمساكن . وباستثناء حرارة الشمس يكاد العالم يعتمد على مواد الوقود لتوليد ما يحتاج اليه من طاقة وحرارة . وقد ظل الحطب والفحم ، لعدة قرون ، يشكلان الوقود الرئيسي للعالم الى أن اكتشف الوقود البترولي ، السائل أو الغازي ، فأحدث تطورا مهما في حياة البشر اذ مكنهم من صنع المحرك ذي الاحتراق الداخلي وتطويره ، وبالتالي من دفع عجلة الصناعة بوجه عام الى الأمام لخدمتهم

الزيت الى أربعة مواد رئيسية ، هي : مواد الوقود ، ومواد التزييت والتشحيم ، والشموع ، ومركبات الأسفلت . وتشتمل كل من هذه المواد على أنواع عديدة ، تنفرد كل منها بخصائص تميزها . وهذه تشمل بدورها عددا من المشتقات يجري تصنيعها ومعالجتها ، بحيث يصلح كل منها لاستعمال معين .

وتحسين أساليب حياتهم . وتنقسم أنواع الوقود البترولي الى غازات وسوائل ، أهمها :

الغاز الطبيعي :

ويخرج من باطن الأرض ممتزجا بالزيت ، ويمكن استعماله في أوجه صناعية ومنزلية عديدة بعد ازالة بعض عناصره غير المرغوب فيها ، كالمركبات الكبريتية . ويتكون هذا الغاز من الميثان والإيثان عند وصوله الى المستهلك .

غاز البترول السائل :

ويتكون من مواد ايدروكربونية غازية تسال بالضغط الشديد ، وتنتج أثناء استخراج البنزين من الزيت الخام في معامل التكرير . وهو ذو أصناف مختلفة ، أهمها البروبان والبوتان ومزيجهما .

البنزيـن :

ويشمل أنواع الوقود السائل القابل للتبخر والاشتعال في محركات الاشتعال الشراري . وأهم خصائص البنزين ، كوقود للمحركات ، وجود الأوكتان فيه بدرجة معينة ، وتحتوي جميع أنواعه على رابع أثيل الرصاص أو رابع ميثيل الرصاص لضبط درجة الأوكتان فيه .

الكيروسين :

ظل الكيروسين أهم منتجات البترول الى أن أقصاه البنزين عن مكانته منذ ربع قرن أو يزيد . ومع ذلك فان الطلب عليه لا يزال كبيرا . كما أن ظهور الطائرات النفاثة أدى الى زيادة استهلاكه . والكيروسين سائل لا لون له ، وهو أقل قدرة على التبخر والاشتعال من البنزين . ويجب أن تكون درجة الأوكتان في الكيروسين المستعمل وقودا في المحركات ، مرتفعة . أما كيروسين النفاثات فيشتمل على نوعين مختلفين يتميز أحدهما بدرجة تجمد منخفضة جدا ، بينما يتميز الآخر باحتوائه على نسبة معينة من البنزين . وهما يخضعان لمواصفات دقيقة ومقننة .

الديـزل :

وتختلف أنواعه باختلاف المحركات التي يستعمل فيها ، فالمحرك الصغير — الشديد السرعة يتطلب نوعا من الديزل تكون درجة اشتعاله وقدرته على التبخر عاليتين . أما المحركات المتوسطة الحجم فتستخدم نوعا من الديزل تكون درجة الأوكتان فيه منخفضة ، بينما تتطلب المحركات الضخمة ، وهي بطيئة نسبيا ، نوعا من الديزل أكثر لزوجة . ونسبة الكبريت في الديزل أعلى منها في البنزين والكيروسين .

زيوت الوقود :

وتتألف مما يتخلف أثناء تقطير الزيت الخام الذي ترتفع فيه نسبة الاسفلت ، وهي تصنع عن طريق موالفة المواد المتخلفة وفقا لنسبة اللزوجة . وهي صعبة التبخر ، وتحوي ترسبات معدنية كمركبات الصوديوم والكالسيوم والحديد والنيكل .

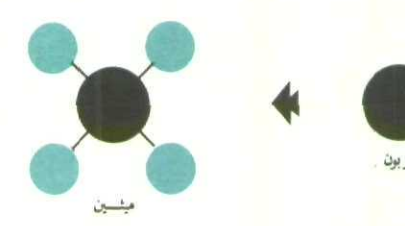
أوجه استعمال الوقود البترولي :

بدأ الوقود البترولي يحل بشكل مطرد في المنزل محل الوقود الصلب . ويعود السبب في ذلك ، بصورة رئيسية ، الى أن الوقود البترولي ذو قيمة حرارية أعلى ، وبه يسهل تنظيم الحرارة وضبط درجاتها بدقة ، ومعظم أنواعه يحترق احتراقا كاملا دون أن يخلف رواسب أو يثير دخانا ، كما أنه خلو من الكبريت الذي يسبب تآكلا للأدوات المنزلية . ومواد الوقود البترولية التي تستعمل في المنازل هي الكيروسين ، وغاز البترول السائل الذي يأتي في أسطوانات فولاذية تتحمل الضغط الشديد . وتستعمل هذه المواد في أغراض الطهو ، والتدفئة ، وتكييف الهواء ، وتشغيل الثلاجات والاضاءة بمصابيح خاصة ، وغير ذلك .

وفي الأعمال الصناعية يستهلك المقدار الأكبر من زيت الوقود في توليد البخار لانتاج الطاقة الكهربائية وتسيير السفن والقاطرات ، كما يستعمل وقودا في محركات السفن الكبيرة . ويستعمل الغاز الطبيعي في تثبيت الطلاء بالحرارة ، وقد أخذ مؤخرا يحل محل « الأسيتلين » في أعمال قطع الفولاذ واللحام . وتقوم بعض المصانع

منظر عام لوحدتي التهذيب الحراري التابعتين لمعمل التكرير في رأس تنورة ، وهما تتناولان مراحل تحسين مواصفات البنزين لرفع درجة الاكتان فيه .

أصغر جزيء من جزيئات الزيت هو الميثان ، ويتألف من ذرة واحدة من الكربون وأربع ذرات من الايدروجين . وهناك جزيئات تتكون من ٩٠ ذرة من ذرات الكربون و ١٨٢ ذرة من ذرات الايدروجين ، كالاسفلت .



بحرقه للتخلص من تأثير الغازات الموجودة في الهواء ، خشية أن تتفاعل بما يصنع في هذه المصانع من مواد . ومعلوم أن البنزين والديزل والكيروسين تستعمل في تشغيل العديد من المحركات والآلات المختلفة الأحجام والأغراض . كما يستعمل غاز البترول السائل في تسيير السيارات والآلات المتحركة والثابتة . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن أبحاثا تجري على خلايا الوقود التي تولد الكهرباء بالتفاعل الكيماوي من وقود بترولي ، ويتوقع أن تصبح ذات أثر كبير على الصناعة اذا ما كللت بالنجاح .

وفي الأعمال الزراعية يحرق الغاز الطبيعي أو غاز البترول السائل في مخازن الحبوب لتخفيف الحبوب المخزونة ، ولإطلاق ثاني أكسيد الكربون الذي تحتاج اليه بعض المزارع المسقوفة . ويستخدم غاز البترول السائل في الزراعة لاطلاق ألسنة من اللهب بين صفوف المزروعات ، عندما تكون قد نمت الى درجة تتمكن معها من تحمل درجة الحرارة ، لقتل الأعشاب التي تتطفل على غذائها ، كما تستعمل في ازالة بقايا المحاصيل . وبالاضافة الى ذلك ، يستعمل البخار المتولد عن حرق بعض مواد الوقود البترولية ، في تعقيم التربة قبل الزرع .

مواد التزييت والتشحيم

مواد التزييت المنتجة من البترول اما أن تكون مستخلصة من المقطرات أو من المتخلفات . وتصنع بتكرير المقطرات والمتخلفات الى درجة عالية ، بحيث تتخلص من الشمع الذي تحويه . وهنالك نوع ثالث من مواد التزييت ، يدعى بالزيوت المركبة ، وهي ممزوجة بأنواع معينة من الزيوت النباتية أو الحيوانية بنسبة تتراوح بين ١ و ٢٠ في المائة . أما الشحوم فتصنع بتغليظ مواد التزييت بمزجها بالصابون أو الصلصال ، أو غير ذلك من المواد المغلظة .

أوجه استعمالها :

تستعمل مواد التزييت والتشحيم لمقاومة الاحتكاك في أجزاء الآلات المتحركة ، كما تستعمل لوقاية المعادن من التآكل ، وذلك بطلاء سطوحها بطبقة مناسبة منها ، تزال بواسطة مذيب كالكيروسين عند الشروع في استعمال المعدن . وتستخدم مواد التزييت على نطاق واسع في المعدات الكهربائية كمواد مبردة أو عازلة . كما تستخدم في نقل الحرارة ، وذلك بتمرير الزيت الحار من السخانة الى الجزء المراد تسخينه بحرارته ، ثم اعادته الى السخانة من جديد . وفي الثلاجات تخلط مواد التبريد كالنشادر ، وثاني أكسيد الكربون ، وثاني أكسيد الكبريت ، بالزيت لتفادي تجمدها . وهي مستعملة في قص المعادن وترقيقها ، وفي تصليد الفولاذ وتطويعه وطرقه ، وذلك بتسخينه بواسطة حمامات من الزيت الحار ، ثم تبريده فجأة ، ثم اعادة تسخينه ، لضمان طواعيته . وقد أخذت مواد التزييت تحل محل الماء في الآلات الهيدروليكية ، وذلك للحيلولة دون تعرضها للصدأ .

شموع البترول

وهي مواد صلبة ، تتكون من ايدروكربونات برافينية مختلفة التركيب ، وتنقسم الى صنفين رئيسيين ، هما : الشموع البرافينية ، والشموع البلورية الدقيقة . وتتميز الأولى بتركيب بلوري غليظ ، وهي بيضاء اللون صلبة ، خالية من

الزيت ، أو بها نسبة ضئيلة منه ، ولا رائحة أو طعم لها . وتتراوح درجة حرارة انصهارها بين ٥٠ و ٨٣ مئوية . أما الأخرى فتتميز بتركيب بلوري دقيق ، وتتراوح درجة حرارة انصهارها بين ٦٠ و ٩٥ مئوية . وهي أما صلبة أو لينة ، وتتراوح نسبة الزيت فيها بين ٠,٢٥ و ٥ في المائة من وزنها . وفي كثير من الحالات تخلط هذه الشموع بنوعيها لانتاج أصناف متوالفة تستعمل وفقا لما يحتاجه المستهلك .

أوجه استعمالها :

تستعمل بعض أنواع الشموع في أغراض الانارة ، وصنع الثقاب والمتفجرات والألعاب النارية والمشاعل . كما تطلى بها بعض أوراق اللف والتغليف ، والأكواب والصحون المصنوعة من الورق ، وبعض المواد الغذائية ، كالجبن والخضار والفواكه ، لحفظها من التعفن والتلف . الا أنه يكثر استعمالها في صناعة مواد تلميع الأثاث والبلاط والسطوح والمعادن ، وفي صناعة الأقلام الملونة ، وفي صناعة سبك المعادن بطريقة الشمع المتبدد ، التي تتم بصنع نموذج عن القطعة المراد سبكها ، ثم تغليف النموذج بمادة مقاومة للانصهار ، ولدى صب المعدن يذوب الشمع ويحل المعدن محله . وكذلك تخلط الشموع بالمطاط لتعديل خصائصه ، أو لوقايته من التلف . كما تستعمل في تغطية الأسلاك الكهربائية ، وفي الأغراض الطبية ، كوسيلة لمعالجة بعض الأعضاء المصابة بالتهاب المفاصل « والروماتزم » والتصلب الذي يعقب العمليات الجراحية أحيانا معالجة حرارية .

مركبات الاسفلت

ينتج الاسفلت من تقطير الزيت الخام ، وهو مادة سوداء ، أو بنية داكنة ، تتدرج في تكوينها من مادة شديدة اللزوجة الى مادة شبه صلبة في درجة الحرارة العادية . وتعرف درجة الحرارة التي تصل عندها الى حد معين من الثبات بدرجة التلين . وتتميز الأصناف التجارية منها بدرجة تلين تتراوح بين ٢٥ و ١٨٣ مئوية ، ومن الممكن أن تذاب منتجات الاسفلت بالكيروسين أو بالكحول . أما الأسفلت المستعمل في تعبيد الطرق ورصف سطوح المباني ، وغير ذلك من ضروب الاستعمال ، فيحل في الماء بنسبة تتراوح بين ٥٠ و ٦٥ في المائة من الاسفلت مع ١ في المائة من وزنه من الصابون .

وتستهلك كمية هائلة من مجموع انتاج العالم الحر من الاسفلت ، التي تقدر بـ ٣٧ مليون طن سنويا ، في انشاء الطرقات والمطارات ، بينما يستهلك الباقي في الأوجه الصناعية والانشاءات الهيدروليكية . وهو يستخدم في كثير من أعمال البناء ، وفي صناعة اللباد الذي يستعمل كمادة عازلة في سطوح المباني وقواطع الجدران ، ويستعمل أيضا في تغليف جدران الأنفاق والقنوات والممرات المائية وأقبية الري والملاحة والخزانات والسدود . وتستعمل صناعة الورق كميات ضئيلة جدا من منتجات الاسفلت التي تتميز بدرجة انصهار مرتفعة . والى جانب هذا يستخدم الاسفلت في صناعة أنواع مختلفة من الكرتون والورق المقاوم لتسرب الماء ، بالاضافة الى بعض المواد اللاصقة .

صناعة البتروكيماويات

عندما زار أحد كبار الكيماويين ولاية « بنسلفانيا » الأمريكية عام ١٨٧٢م كتب تقريرا جاء فيه : « ان هذه المادة (البترول) أثمن من أن تحرق . فنحن بحرقنا لها ، انما نحرق المال . ان البترول يجب أن يستعمل كمصدر أساسي للمركبات الكيماوية . »

ويبدو أنه قدر لتوصية هذا الكيماوي أن تتحقق ، ولو مبدئيا . فعلى الرغم من حداثة عهد صناعة « البتروكيماويات » الا أنها آخذة في نمو مطرد . وهي ليست واسعة النطاق اذا ما قورنت بصناعة البترول عموما ، اذ أنها لا تستهلك أكثر من ٣ في المائة من مجموع انتاج البترول في العالم .

ويمكن تقسيم المركبات الكيماوية المنتجة من البترول الى قسمين رئيسيين : المركبات العضوية ، وهي تتألف من ذرات الكربون ، وتشمل الآيدروجين ، وأحيانا الأكسجين ، والكلور ، والكبريت ، والنيتروجين . والمركبات غير العضوية ، وهي لا تحتوي على الكربون ، ويمكن انتاجها بمقادير كبيرة .

ولعل المذيبات من أهم ما تنتجه صناعة البتروكيماويات ، وهي فئتان : مذيبات أيدروكربونية ، وهي تتألف من الكربون والايدروجين ، ويحصل عليها خلال عمليات التكرير لانتاج البنزين . ومذيبات كيماوية ، وهي تتكون من الكربون والايدروجين والأكسجين ، وتصنع من الغازات المنطلقة من الزيت لدى تكريره كغازات الايثلين والبروبلين والبوتلين .

وتستعمل المذيبات في صنع الأصباغ على أنواعها ، ومواد التلميع ، والتنظيف ، وحبر المطابع ، ومستحضرات التجميل ، والمطاط الاصطناعي . كما تستعمل في استخراج الزيوت النباتية التي تتم باذابة المواد الدهنية في مذيب بتروكيماوي مناسب ، ثم استعادتها بالتقطير .

وتشمل البتروكيماويات صناعة المنظفات الكيماوية التي تمتاز بقابليتها للذوبان في المياه العسرة أو الملحة . كما تشمل صناعة اللدائن « البلاستيك » ، التي بلغ انتاج العالم منها أكثر من خمسة عشر مليون طن خلال عام واحد فقط .

وبدأت صناعة البتروكيماويات تنتج أنواعا من خيوط النسيج الاصطناعية التي تمتاز بقوتها وسهولة تنظيفها وجاذبية شكلها ، بالاضافة الى أنواع كثيرة من المطاط الاصطناعي المقاوم للحرارة أو التآكل .

ولعل المركبات الكيماوية المنتجة من البترول ، كالأستيلين ، والنشادر ، والأحماض المتعددة ، ومشتقات الايثان والأثيلين ، ومشتقات البروبان والبروبيلين ، ومشتقات البوتان ، والمشتقات العطرية ، ومركبات الكبريت ستكون ذات أثر فعال في انتاج أصناف كيماوية عديدة ، وتيسيرها للمعامل على اختلاف أعمالها . هذا بالاضافة الى مجموعة من المركبات الكيماوية الزراعية من أسمدة ومبيدات ، كان لها الفضل في نمو المحاصيل الزراعية نموا ملحوظا في النصف الثاني من هذا القرن ، والبحث متجه الآن لإيجاد نوع من المبيدات يمتصه النبات لمكافحة الآفات الجذرية .

ان أثر الزيت في علاقات الأمم وتقدمها ، لا يمكن أن ينتهي عند حد ، فان عشرات المعاهد ومراكز الأبحاث والمعامل الكيماوية ، ومئات العلماء والكيماويين والأموال الباهظة التي تجند لايجاد أوجه استعمال جديدة للزيت أو مشتقاته ، تخرج كل يوم بنتائج مشجعة . ولعل المحاولات والتجارب الناجحة التي تجري الآن لانتاج البروتين من الزيت لسد حاجة الملايين من سكان العالم من أهم ما يبعث على التفاؤل في هذا المجال . وعندما يتم ذلك ، سيغدو الزيت ، من أهم ما أسرجه الانسان لخدمته من موارد طبيعية ، حتى ليستطيع أحدنا القول دون تردد : « ان الزيت هو سمة القرن العشرين » .

ح. ح.

بناء الفكر العربي المعاصر

من خلال أعمال الموسوعيين العرب

بقلم الاستاذ انور الجندي

استطاع الفكر العربي المعاصر أن يقيم « بناء متكاملا » في مجال اللغة ، والتاريخ ، والثقافة ، والتراجم ، والأدب من خلال الأعمال الكبرى التي قام بها الموسوعيون العرب في مجال التأليف والصحافة .

وقد قام هذا البناء على عنصرين أساسيين ، هما : الاحياء ، والترجمة . فقد تضافرت جهود النوابغ والأعلام منذ مطالع النهضة على احياء التراث العربي الاسلامي ، وترجمة أحدث مفاهيم الفكر الغربي ، ثم أجرى هؤلاء المفكرون مزاوجة وصهرا وتنسيقا بين الرافدين ، بحيث أمكن أن يصوغوا فكرا عربيا متجددا ، يغني اللغة العربية ، ويمدها بالقوة والحيوية والنماء .

فقد حرص الموسوعيون العرب في مختلف مجالات العلم والبحث على أن يمزجوا القديم بالجديد ، وأن يراجعوا أعمال كل من سبقهم من موسوعيي العرب القدماء ، وأن يضيفوا اليها عصارات موسوعات ، وقواميس ، ودوائر المعارف الأوروبية في نفس المواد ، بما يحقق تسلسل الأبحاث ، منذ كانت في أيدي العرب والمسلمين ، حتى أسلموها الى الأوربيين في أول عصر النهضة ، ثم يواصلون الكشف عما أضيف اليها . فعل ذلك البستاني ، ومحمد فريد وجدي ، وأحمد عطية الله في دوائر المعارف التي قدموها . وفعل ذلك أمين المعلوف ، وأحمد شرف ، وأحمد عيسى ، وانستاس الكرملي ، والأمير مصطفى الشهابي في اصطلاحات الحيوان ، والطب ، والنبات ، والزراعة ، وفعل ذلك أمين سامي ، وسليم حسن ، وعبد الرحمن الرافعي ، وأحمد شفيق ، ومحمد عبد الله عنان في موسوعاتهم التاريخية .

ولقد حفل الفكر العربي في العصر الحديث بالموسوعيين النوابغ ، الذين حققوا بناء متكاملا في مختلف المجالات ، وكان ميدان عملهم تأليف الموسوعات . وقد أوتي هؤلاء فسحة من العمر والوقت والصحة ، على الرغم من ظروف الحياة الدقيقة في أوائل هذا القرن ، حتى استطاعوا أن يقدموا أرقاما ضخمة من الصفحات والمجلدات ، فقدّم فريد وجدي ثمانية آلاف صفحة في دوائر معارفه ، وقدم خير الدين الزركلي عشرة آلاف علم .

واذا ألقينا نظرة سريعة الى مجال الموسوعات نجد قطاعات خمسة حافلة بالمؤلفات الضخمة والدراسات المضنية ، هي مجال الموسوعات الثقافية العامة ، ومراجع الدراسة الأدبية ومصادرها ، ومجال اللغة واصطلاحاتها ، ومجال التاريخ ، ومجال التراجم ، ومجال معاجم العلوم الطبية والنباتية ، والحيوانية ، والزراعية .

أولا — ويبرز في مجال الموسوعات الثقافية العامة ثلاثة أعلام ، هم بطرس البستاني ، وفريد وجدي ، وأحمد عطية الله (١) .. والمعلم بطرس البستاني هو أول من وضع معجما عربيا عصريا على هيئة موسوعة ثقافية عامة باللغة العربية في العصر الحديث ، وقد أطلق عليه هذا التعريف الشامل : « قاموس عام لكل فن ومطلب » ، وأتم منه قبل وفاته ستة مجلدات ، ثم أتم ابنه سليم الجزئين السابع والثامن ، ثم أتم الأجزاء التالية الى الحادي عشر ولداه نجيب وأمين ، بمساعدة سليم البستاني ، ووقفوا عند كلمة « عثمانية » . وقد اهتم بطرس البستاني بمنهج دوائر المعارف الغربية ومضامينها ، وترجم منها كثيرا مما احتاج اليه .

ثم جاء العلامة فريد وجدي فخطا خطوة جديدة أقوى من خطوة البستاني ، اذ استطاع أن يعد موسوعة جامعة بين القديم والجديد في عشر مجلدات ، يقع كل مجلد في ثمانمائة صفحة ، هي « دائرة معارف القرن العشرين » . وقد بدأ كتابتها في أول سبتمبر سنة ١٩٢٢ ، وانتهى منها في مارس سنة ١٩٢٥ . وكان قد ألف قبلها موسوعة صغيرة باسم « كنز العلوم واللغة » عام ١٩١٧ ، وقال ان الغرض منها « هو حصر خلاصة معلومات البشر في دائرة واحدة ليلم بها المطالع الماما جمليا ، فيستفيد لعقله وروحه وجسده » . فلما نجح المشروع دفعه الايمان بالثقافة الى انشاء دائرة المعارف الكبرى ، كما قال ، « على أسلوب يناسب الحاجة العصرية ليكون بازاء دائرة معارف (لاروس) الكبيرة . »

---

(١) هناك موسوعة للعتبات المقدسة يدأب في اخراج أجزائها العلامة العراقي الأستاذ جعفر الخليلي .

وآية فريد وجدي أنه تعمق في دراسة التراث العربي الاسلامي تعمقا واسعا ، ومزجه بالفكر العربي الذي ترجمه عن دائرة معارف «لاروس» مزجا أصيلا ، بحيث ظل طابع الفكر العربي واضحا في موسوعته ، على نحو يهدي العربي الى مكانة أمته في التاريخ ودورها في الحضارة . وبذلك استطاعت دائرة معارف القرن العشرين أن تكون عاملا هاما في بناء الثقافة العربية بناء انسانيا شاملا ، يجمع بين العلم ، والدين ، والفلسفة ، والتاريخ .

وقد اقتفى العلامة أحمد عطية الله نفس الطريق منذ الأربعينات في ثلاثة أعمال موسوعية هامة ، هي : « القاموس السياسي » ، و « ودائرة المعارف الحديثة » و «الموسوعة الاسلامية» . أما القاموس السياسي فهو في حجمه الجديد (١٤٠٠ صفحة من القطع الكبير) يقدم مادة ضخمة لكل ما يتصل بالسياسة العالمية ، والعربية ، والاسلامية في مختلف الأمم ، والشعوب ، والأوطان ، من حيث جغرافيتها ، وتاريخها ، وأعلامها ، ونظم الحكم فيها . وتقدم « دائرة المعارف الحديثة » معلومات موجزة ، ولكنها جامعة ، حول كل مواد الثقافة ، ومن شأنها أن تعين الباحث المتعجل . وأما « الموسوعة الاسلامية » فتجمع كل مادة اسلامية في مجال الفقه ، والعقائد ، والتصوف ، والأخلاق ، والفلسفة ، مع تراجم أعلام الاسلام في مختلف المجالات ، وقد ظهر منها جزآن .

ويمكن أن نضيف هنا الباحثة فاطمة محجوب ، التي أصدرت دائرة معارف الشباب في ١٢٠٠ صفحة ، ولخصتها في دائرة معارف الناشئين . وقد ضمت دائرتها الكبرى أربعة آلاف كلمة ، مصحوبة بما يقرب من ٥٠٠ خريطة وصورة ايضاحية . وقد راجعت أمهات الكتب ودوائر المعارف ، حتى بلغ ما راجعته ، على حد قولها ، نحو المائتين . وطابع الموسوعة علمي تاريخي ، وبها تراجم .

ثانيا — وفي مجال المصادر الأدبية والتاريخية نرى يوسف اليان سركيس ، ويوسف أسعد داغر ، وعمر رضا كحالة على التوالي قد قدموا أعمالا هامة في هذا المجال ، كانت في الحق استجابة لحاجة ثقافية هامة وملحة هي اعداد المراجع والمصادر التي تعين الباحث . وقد بدأ يوسف اليان سركيس عمله منذ أوائل القرن في اعداد « معجم المطبوعات العربية والمعرب » ، الذي أتمه عام ١٩١٩ ، وجعله « مرجعا شاملا للأسماء والكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية ، مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمحة من ترجماتهم ، وذلك منذ ظهور الطباعة » . وقد أشار الى أنه باشر العمل ستة عشر عاما ونيف « باذلا غاية الجهد في فرز جميع المصنفات المطبوعة ، وضبط أسماء مصنفيها ومترجميها » . وقد وجد في ذلك مشقة عظيمة أسهرته الليالي الطوال ، ولم يذلل له تلك الصعاب الا كثرة التنقيب والتفتيش ، ومساعدة كبار الأدباء ، وفي مقدمتهم أحمد تيمور ، بل ربما أحوجته الضرورة — على حد قوله — الى الاطلاع على الكتب نفسها للوقوف على حقيقة أسمائها ، وأسماء مؤلفيها ، وما احتوته من العلم والفن .

ثم كان عمل يوسف أسعد داغر مكملا لهذا العمل ، ومنسقا له على نحو أكثر دقة وشمولا . فأصدر « مصادر الدراسة الأدبية » وخص الجزء الأول منه للأدب العربي القديم وأعلامه ، والثاني للأدب العربي الحديث وأعلامه من الراحلين . وقد حفل هذا الجزء « بدراسات عن مشاهير حملة الفكر العربي الحديث في نهضتنا الأدبية ، منذ مطلعها في غرة القرن التاسع عشر ، حتى أواخر عام ١٩٥٥ » . ووعد باصدار جزء ثالث عن « الأحياء » ، لمّا يصدر .

ثم جاء العلامة عمر رضا كحالة عام ١٩٥٧ فقدم موسوعة ضخمة في ١٥ مجلدا ، تبلغ في مجموعها ٧ آلاف صفحة تقريبا ، باسم « أعلام المؤلفين » ، كان حصادا شاملا لكل كاتب عربي ومؤلف وصاحب قلم ، وقد جعله معجما « لمصنفي الكتب العربية من عرب وعجم ، ممن سبقوا الى رحمة الله منذ بدء تكوين الكتب حتى العصر الحاضر ، وألحق بهم من كان شاعرا أو راويا وجمعت آثاره بعد وفاته » . وقد أولى « داغر » ، و « كحالة » الاهتمام بترجمة كل علم من الأعلام ومؤلفاته ، والمصادر التي كتبت عنه .

ثالثا — وفي مجال اللغة نرى انتاجا ضخما لأحمد تيمور ، وأمين المعلوف ، ومصطفى الشهابي ، ومحمد شرف ، وأحمد عيسى . أما أحمد تيمور فقد قدم عددا ضخما من أبحاث اللغة ، منها « الموسوعة التيمورية » ، وهي من كنوز العرب في اللغة والفن والأدب ، و « أسرار العربية » ، وهو معجم لغوي نحوي صرفي ، و « الأمثال العامية » ، و « البرقيات للرسالة والمقالة » ، و « السماع والقياس » ، و « ضبط الأعلام » ، و « الكنايات العامية » ، و « لعب العرب » ، و « الحب عند العرب » ، و « أوهام شعراء العرب في المعاني » ، و « الموسيقى والغناء عند العرب » ، و « التذكرة التيمورية : معجم الفوائد ونوادر المسائل » ، و « تصحيح القاموس المحيط » ، و « تصحيح لسان العرب » ، و « خيال الظل ، واللعب ، والتماثيل المصورة عند العرب . » وقد جاء هذا العمل الموسوعي نتيجة مراجعة أحمد تيمور لعدد كبير من مجلدات التراث العربي .

أما الدكتور أمين معلوف فقد قدم « معجم الحيوان » عام ١٩٣٢ ، وكان قد بدأ دراسته عام ١٩٠٨ ، حيث بحث المصادر العربية القديمة والحديثة ، وراجع مئات المؤلفات بالانجليزية والفرنسية ، وقدم كذلك « المعجم الفلكي » .

وقدم الدكتور محمد شرف « قاموس شرف في العلوم الطبية والطبيعية » عام ١٩٣٦ ، وهو ثمرة مراجعة ضخمة للتراث العربي الاسلامي ، وللمؤلفات العصرية في الطب والطبيعة .

وقدم الدكتور أحمد عيسى ثلاثة معاجم هي « معجم أسماء النبات » ، و « معجم آلات الطب والجراحة » و « الكحالة عند العرب » ، (١) و « معجم مصطلحات العلوم الطبيعية » : بالانجليزية والفرنسية والعربية » . وقد راجع جميع النتاج العربي والغربي في هذا الكتاب .

وقدم الأب أنستاسي ماري الكرملي معجمه العربي الكبير « المساعد » الذي جمع فيه « ما لم يعثر عليه في معاجم العرب من ألفاظ العلماء ، وكلام المولدين ، ومفردات العوام ، والمعربات الحديثة » .

أما الأمير مصطفى الشهابي فقد عني بالألفاظ الزراعية ، فقدم منها « معجم الألفاظ الزراعية » ، بالعربية والفرنسية و « معجم المصطلحات الحراجية » . وله كتاب « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » . وقد عمل ، أطال الله بقاءه ، منذ عام ١٩٢٠ الى اليوم في دراسات العلوم الزراعية « الأشجار ، والبقول ، والدواجن ، والزهور ، والنبات ، والنحالة ، والحراجة ، والبستنة ، وغيرها » .

رابعا — وفي مجال التاريخ نجد عددا ضخما من الباحثين أصحاب الموسوعات ، منهم : علي مبارك ، وأمين سامي ، ومحمد كرد علي ، وأحمد شفيق ، وعبد الرحمن الرافعي ، ومحمد عبد الله عنان ، وسليم حسن ، وأمين سعيد .

فقدّم علي مبارك « الخطط التوفيقية » في ٢٠ جزءا مجموعة في خمس مجلدات ، تبلغ ألفي صفحة ، سار فيها مسار خطط المقريزي ،

الذي سبقه بأكثر من ٤٥٠ عاما . وقدم أمين سامي موسوعة « تقويم النيل » ، تتضمن تحاريقه، وفيضانه منذ عام ٦٢٢م الى عام ١٩١٤ ، معتمدا في ذلك على ما دونه مؤرخو مصر ، مع ذكر شذرات تاريخية عن الواقعات الصحيحة . وظهر التقويم في ٣ أجزاء موزعة في خمسة مجلدات ، تضم ٢٥٠٠ صفحة من القطع الكبير .

وقدم كرد علي « خطط الشام » في ستة مجلدات ، ضمت ١٩٤٤ صفحة كبرى . أما أحمد شفيق فقد قدم موسوعتين كبيرتين هما « حوليات مصر السياسية » ، و « مذكراتي في نصف قرن » . والحوليات ، هذه ، عمل جديد في كتابة التاريخ السياسي المعاصر ، فقد أخذ أحمد شفيق يتبع الحوادث ، ويرصد الأخبار، ويقيد الروايات ، ويجمع الوثائق ، منذ درج عام ١٨٨٠ ، مما مكّنه من اعداد هذا العمل الضخم . وفي مذكراته خلال خمسين عاما قدم اضافات هامة في تاريخ مصر .

أما عبد الرحمن الرافعي فقد أصدر دراسة شاملة للحركة القومية في مصر ، بدأها في أواخر القرن الثامن عشر حتى السنوات الأخيرة ، تضم أكثر من ١٦ مجلدا . وقد عاودها في السنوات الأخيرة ، فكتب تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة الى الفتح العربي .

أما عبد الله عنان فقد أنجز موسوعة ضخمة لتاريخ الأندلس في سبعة مجلدات ضخام ، تضم نحو أربعة آلاف صفحة ، هي : « دولة الاسلام في الأندلس » ، و « دولة الطوائف » ، و « عصر المرابطين والموحدين » ، و « نهاية الأندلس » ، و « الآثار الأندلسية الباقية » . وقد عايش البحث ربع قرن ، وتفرغ له ، حتى قال : « لم أترك مدينة أندلسية أو قرية الا زرتها ، ولم أترك مدينة لمعركة هامة الا درستها » .

وقدم سليم حسن موسوعة كبرى عن مصر القديمة ، بلغت (١٦) مجلدا ، بدأها عام ١٩٤٠ . وقدم أمين سعيد موسوعة عن التاريخ السياسي العربي الحديث ، تضم أكثر من ١٢ مجلدا .

خامسا — وفي مجال التراجم نرى موسوعات خير الدين الزركلي ، وعمر رضا كحالة ، وزكي محمد مجاهد ، والدكتور محمد محمد شرف . أما الزركلي فقد قدم موسوعته الكبرى في أكثر من ٤ آلاف صفحة تضم أكثر من عشرة آلاف من أعلام العرب والمسلمين في القديم والحديث ، مضافا اليها نماذج وخطوط ١٤٠٠ شخص معاصر ، وقد بدأها عام ١٩١٢ واستوت في صورتها النهائية عام ١٩٥٩ ، في عشرة مجلدات . وقد صور منهجه في العمل فقال : « جعلت ميزان الاختيار أن يكون لصاحب الترجمة علم تشهد به تصانيفه ، أو منصب رفيع كان له أثر بارز ، أو فن تميز به » .

وتضم موسوعة « الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة للهجرة » لزكي مجاهد ، تراجم رجال الشرق والدول العربية والاسلامية ، بدأ ظهورها عام ١٩٤٨ ، وتمّ نشر خمسة أجزاء منها .

وقدم عمر رضا كحالة « معجم أعلام النساء » في ٣ مجلدات ، تضم دراسات معبرة عن النساء العربيات منذ الجاهلية الى مشارف العصر الحديث ، كما قدم الدكتور أحمد عيسى « معجم الأحياء » منذ عام ٦٥٠هـ الى يومنا هذا ، مكملا به موسوعة « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة ، وقد ضمنه ٩٠٠ ترجمة .

وقدم « فيليب دي طرازي » موسوعة لأعلام الصحافة العربية تحت عنوان « تاريخ الصحافة العربية » في ٤ مجلدات تحتوي على تراجم المشتغلين بالصحافة العربية .

من خلال هذا العرض السريع نرى كيف أشاد الموسوعيون العرب بناء ضخما للفكر العربي المعاصر في مجال « التأليف » . بيد أن هناك مجالا موسوعيا آخر حفل بالعمل والبناء ولا يزال بعيدا عن ضوء التقدير والتكريم ، وذلك هو عمل الموسوعيين العرب في مجال الصحافة . وهذا موضوع بحث خاص .

طرائف

فنجانا قهوة !!

كان المرحوم محمد البابلي يركب ذات يوم عربة أجرة ، ويستنهض السائق ليسرع به الى موعد هام ، وبينما هو يجتاز أحد الشوارع اذ ناداه رجل من معارفه يستوقفه ، فأوقف البابلي العربة ، وانتحى السائق به ناحية الافريز ريثما يقبل الرجل ، وحضر الرجل فحياه محمد البابلي وانشأ يحدثه حديثا تافها اضجر البابلي وامضه ، فصرخ يصيح بالسائق :

— يا سائق أعمل لنا فنجاني قهوة ؟!

فخجل الرجل وانصرف

من ومن ومن ومن ؟!

دخل مدرس جديد أحد الفصول ، وأخذ يسأل بالترتيب كل تلميذ عن اسمه ، قائلا : من أنت ؟ وهكذا حتى وجد تلميذا بدينا جدا ، فسأله :

— وأنت من ومن ومن ومن ؟!

تمثال يزداد شبابا !!

كان برنارد شو يري أحد الضيوف تمثاله النصفي ، فقال الضيف : يوجد شيء غريب عن هذا التمثال . انه يزداد شبابا يوما بعد يوم .. كلما أقارنه بنفسي .

عصر السرعة

بعد أن حلقت الطائرة التي تفوق الصوت سرعة من مطار روما في طريقها الى نيويورك ، سألت المضيفة احدى الراكبات ما اذا كانت ترغب في خلع معطفها . فقالت الراكبة : كلا .. شكرا ، انني نازلة في لندن .

فوز

قال المذيع للمشترك في المسابقة : ان الجواب الصحيح هو عمر بن الخطاب ، وليس عمر ابن عبد العزيز . ولكن بما أنك ذكرت النصف الأول من الاسم صحيحا ، فلقد فزت بنصف الجائزة .. مبروك .

تقدير

ذهبت زوجة مزارع لزيارة الطبيب ، وبقي المزارع في البيت للعناية بالأطفال .. فسجل كل شيء عمله ، وقد أتى سجله كما يلي :

فتح الأبواب ١٠٦ مرات ، نهر الأطفال ٩٤ مرة ، ربط سيور الأحذية ١٦ مرة ، أوقف المشاجرات ١٩ مرة ، سقى الأطفال ماء ٢٦ مرة ، رد على التلفون ١١ مرة ، رد على الأسئلة ٢٠٢ من المرات ، جرى وراء الأطفال ٤ر٥ ميلا ، فقد السيطرة على أعصابه ٤٥ مرة .

وفي اليوم التالي ذهب الى المدينة ، واشترى الغسالة التي طالما تمنتها زوجته .



للسيد حسن السيد

ان شئت ثر يا شعر كالمتمرد   أنا ما سمعت اليوم غير مقلد
أو هادم لعروشك الشم التي   شمخت بها الأجيال فوق الفرقد
أو قابع في حجرة متحير   في أمره كالسائل المتردد
كيف اتجهت يكاد يخنقني الأسى   فكأنما أنا والأسى في موعد
صمتت بلابلك الطروبة وانطوى   عن أفقك الزاهي ابتداع المنشد
وتأوهت أدواحك الغنّ المليـ   ـئة بالشذى يا للردى المترصد !
وتجردت تلك الحقول وطالما   منها الزمان جنى ولمّا تنفد

هذي حياتك ما لمحت مثيلها   الا حياة البائس المتوجد
تتلمس الماضي البعيد وحولها   ماء الحياة يسيل أعذب مورد
علقت بأشراك القديم ولم تزل   تبكي الطلول بحسرة وتنهد
ولربما حنّت الى مستقبل   أسمى وذلك ليس بالمستبعد
فأتت تصب على الأنام مدافعا   من شاعر متبصر أو نيقد



الأمومة في أدب المهجر

بقلم الاستاذ الغزالي حرب

مهما يكن من خلاف في تقويم أدب المهجر وشعره بين النقاد ، فان مما لا يختلف فيه منصفان ، أن المدرسة المهجرية ، قد أحدثت آثارا لا يستهان بها في أدبنا الحديث . ولشعراء المهجر وأدبائه من الاحساس الانساني النبيل بأيادي الأمومة وافضالها رصيد ثر عميق ، كما تنطق بذلك الأمثلة الآتية ، التي ليست الا غيضا من فيض :

فشفيق معلوف تحت وطأة الهجرة الموحشة يقول عن نفسه انه ترك بوطنه أمه :

وغادر عند صخر الشط أما
تذوب اليه تحنانا وشوقا
فما نضبت لمقلتها دموع
كأن لعينها في البحر عرقا

وشاعر مهجري آخر مكفوف لا عزاء له عن ظلام دنياه ، الا عين أمه الحنون ، التي اعتبر موتها شرا من ظلام العمى ، يقول :

خلقت أعمى وكان عندي
في عين أمي ضوء لعيني
فقدت أمي فحين ماتت
عميت يا رب مرتين

والياس قنصل يجمع في لوعته بين أمه ووطنه ، قائلا :

واستصغر الدهر ما ألقى فلوعني
بحرقة البعد عن أمي وعن وطني

ثم يناجي أمه هاتفا من صميم الوجدان في حنين وحنان :

أماه لا شيء في الفؤاد يبهجني
فلا وألام اذا ما بت أسوانا
أماه مر شبابي بالعذاب فهل
بعد الشباب يعود العمر ريّانا ؟

وهنالك في أرض الغربة والوحشة ، ناجى « أمين مشرق » أمه الحبيبة ، بكلمات من الشعر المنثور هامسا :

يا علة كياني ، ورفيقة أحزاني . يا رجائي في شدتي ، وعزائي في شقوتي . يا لذتي في حياتي ، وراحتي في مماتي . أمي ، وما أحلاك يا أمي . أنت يا مسكّنة وجعي وألمي ، ومبددة بؤسي وهمّي .. أنت وما أصفاك يا أمي .

جراء الكلاب تجلس في أحضان أمهاتها ، وفراخ الدجاج تحتمي بأجنحة أمهاتها ، وغصون الأشجار تبقى معانقة أمهاتها .. وأنا وحدي بعيد عنك ، ومشوق اليك يا أمي .

اذا مت يا أمي ، واذا قتلني وجدي . ودفنت آمالي في هذه الأرض الغريبة ، فاجلسي عند الغروب ، قرب غابة السنديان وأصغي ..

هناك نداءاتي امتزجت بنسمات الغابة وأشجارها ، يرتلن بهدوء متمايلات مرددات : يا أمي .. يا أمي .. يا أمي ..

وفي التعقيب على هذه المناجاة البارة الحارة ، يقول الدكتور محمد مندور ، مؤلف « في الميزان الجديد » : هذه أنفاس أمين مشرق ، أعد قراءتها ، ثم استشعر ما فيها من حرارة ونبل ، أو ما تحس بجمال يحزنك أن صاحبها مات بعيدا عن « غابة السنديان .. »

وكما ناجى أمين مشرق أمه بهذا النثر الشعري الذي سماه الدكتور مندور « النثر المهموس » ، ناجاها فيمن ناجاها شاعرنا القروي رشيد سليم الخوري بقصيدته ، التي جاء فيها :

سلام الى حيث روحي
بلبنان سابحة هائمه
الى أخوة كفراخ القطا
وأم على أمرهم قائمه
اذا عبس الدهر في وجهها
تظل لهم أبدا باسمه
فيا رب رفقا بتلك الفراخ
وأبق لهم أمهم سالمه

وكذلك ناجاها شاعرنا القروي ، وهو يناجي القمر الساري في بلاد المهجر بقصيدته « الى القمر » ، ومنها :

وان شمت أمي عند المغيب
توجه للبحر عني سؤالا
فقف خاشعا وقفة الولد البر
بالوالدين وخذني مثالا
وقبل بنورك ذاك الجبين
ليزداد نورك منه جلالا
وقل أيها الأم صبرا جميلا
اذا زمن البعد يا أم طالا

وقال يصف حب الأم الذي هو فوق كل حب :

ولو كان يغني الحب أو يدفع الردى
لما نام تحت الترب حي له أم

وبين أخطر الأرزاء والمحن ، وفي مهب عواصف الزمن ، ذكر شاعرنا القروي أمه مستروحا العزاء والصبر الجميل بصدرها الحنون . يقول في قصيدة له :

ولو أني رزئت بفقد مالي
وأصحابي وأشعاري الغوالي
فلي كنز – وقاه الله – أغلى
من التاج المرصع باللآلي
ألا وهو الحنان بصدر أمي

وقلب الأم ينبوع فياض بالسعادة الحقيقية التي يستحقها البار لا العاق :

وتلك هي النعمى التي ما استحقها
عقوق باحسان الأمومة يكفر

ومن المناهج الجديدة لشعراء المهجر في الاحساس بالأمومة ، منهج حديثهم بلسان الأم نفسها بادئة ، أو في معرض حوار . فهذا « صلاح الأسير » يقول بلسان الأم من قصيدة له :

أنا الآلام أبني الدهر
من روحي ومن جسمي
أحس الهم في قلبي
ربيعا أخضر الحلم

وما أصدق أدباء المهجر وشعراءه في مراثيهم الرائعة لأمهاتهم ، ولاسيما الياس قنصل ، وجورج صيدح ، ومزيد أبو فاضل ، وشبلي الملاط ، والياس فرحات ، وميخائيل نعيمة . وحسبنا من مراثي هؤلاء الشعراء الأبرار أن نشير ، في ايجاز ، الى ما تيسر من مرثية جورج صيدح شعرا ، ومرثية ميخائيل نعيمة نثرا . أما جورج صيدح فيبكي متسائلا ، ويتساءل باكيا ، في همس صادق حنون وفي حفي :

كسرت قلبي فمن يجبره
ان تكن أمي التي تكسره ؟
لست أشكوها فشكواي جحود
ولها في عنقي دين الوجود
ان قلبي ليس بالقلب الحقود
يلثم الكف التي تنحره
كسرت قلبي فمن يجبره
أتراها حملتني للحياة
كي أقضيها على شوق الممات
نعمة الدنيا حنو الأمهات
خاسر الآمال من يخسره
كسرت قلبي فمن يجبره
رحمة يا رب في اليوم الأخير
واعف عنها قد عفا قلبي الكسير
ان ذنب الأم في عيني صغير
وخلال الدمع لا أبصره
كسرت قلبي فمن يجبره ؟

وأما ميخائيل نعيمة فما أبلغ وما أصدق مرثيته النثرية الشعرية البليغة « ماتت التي ولدتني » ، وفيها يقول راثيا ، وما رثاؤه الا نبضات وأنات في هذه الكلمات الداميات الدامعات :

ماتت التي ولدتني ، والموت يطوي الكل حتى الوالدات .. ماتت وفي لحمي وعظمي ودمي ، بقايا من لحمها وعظمها ودمها ، وفي القلب من أنباضها أنباض ، وفي الصدر من أنفاسها أنفاس . أما كونت جسما حيا في جسمها ، ومن جسمها الحي ؟ فكأن بعضي مات بموتها ، وكأن بعضها ما يزال حيا في حياتي ، فكلانا ميت ، وكلانا حي ..

كل القلوب عجيب ورائع وغريب ، ولكن أعجبها وأروعها وأغربها – من غير شك – قلوب الوالدات ، فما ان يرحل ولد عن قلب والدة ، حتى تصبح الوالدة لها قلبان ، وجسدان ، وحياتان . وتتعدد المواليد فاذا الوالدة ذات قلوب ، وأجساد ، وحيوات عدة . أما تسمعون الوالدات يتحببن الى أولادهن بمثل هذه الكلمات : يا قلبي .. ويا روحي .. ويا عيني .. وما شاكلها؟! وما ذاك من المجاز في شيء . ان هو الا الحقيقة العارية عن أي زخرف ومبالغة . فما مس ولدا ضر الا مس والدته أضعافه ، ولا سالت من عروقه قطرة دم الا تفجرت لها من قلبها قطرات ، ولا اربد في عينه نهار الا أظلمت في عينها شموس ، ولا غاب عن أبصارها الا وزعت نفسها حراسا يسهرون على سلامته ودعوات تدرأ عنه السوء ، وتسدد خطاه الى الفلاح ، والى العش الذي منه طار ، وعنه اغترب . وأما اذا اختاره الموت ولفته ظلمة الرمس ، فما من خطيب ، ولا شاعر ، ولا أمير بيان يستطيع أن يصف لكم ميتة واحدة من الموتات التي تموتها والدة فجعت بقلب من قلوبها .. »

ذلك بعض ما قاله أدباء المهجر وشعراؤه في الأمومة ومكانتها وأفضالها التي لا تعد ولا تحصى ، ومهما يكن من خلاف في تقويم هذا الأدب وتقديره ، فان القارىء الذواقة لهذا الأدب المهجري ، لا يسعه الا أن يقول مع الناقد الغربي « ويتمان » عبارته المأثورة : « أنا لا أقرأ كتابا ، وانما أقرأ انسانا .. » ثم يقول مع الناقد العربي الدكتور محمد مندور : « أدب المهجر أدب يصاغ من الحياة ، وكأنه قطع منها . وأدباء المهجر يردونني الى النفس التي نعتز بها .. »

وحسب الأديب المهجري ، والشاعر المهجري ، أولا وأخيرا ، أن يكون انسانا في شعوره ، وانسانا في نثره ، وانسانا في هتافه من الأعماق يقول شاعرنا الانسان المعاصر ، صديقنا محمود أبي الوفا :

حسبي اذا الحب أضناني فمت هوى
ان يذكروني قالوا : كان انسانا



زينب

بقلم الاستاذ عبدالله حشيمه

– أنظري ما عندنا من المال يا زينب .

– ما عندنا من المال ؟ لماذا يا حمدان ؟

– لم تبق الدنانير الرومية ، والدراهم الفارسية ، صالحة للتداول .

– لم تبق صالحة للتداول ؟!

وتوقف الكلام في حنجرة زينب ، كأن في قول حمدان ما أثار في نفسها قلقا لأمر لم يكن في طوقها البوح به ، ثم أردفت متغلبة على قلقها :

– وبم يتعامل الناس اذن ؟

– بالدنانير والدراهم العربية .

قالت متضاحكة :

– بالدنانير والدراهم العربية ؟! وأين هي هذه الدنانير والدراهم العربية ؟

– في متناول الأيدي .

– ومن أين أتت ؟

– سكها الخليفة عبد الملك ، وفرض تداولها في أرض الخلافة على اعتبار كونها النقد الرسمي بعد الآن للدولة .

وعاود القلق زينبا ، فقالت :

– ودنانيرنا ، ودراهمنا ، ما نفعل بها ؟

– نستبدلها بالدنانير والدراهم الجديدة .

– ومن يبدلها لنا ؟

– بيت المال .

– بيت المال !! وهل على الجميع أن يقفوا ببابه لاستبدال مالهم ؟

– في خلال أسبوع .. وهي المهلة المحددة لذلك .

– ومن لا يستبدل ماله ؟

– يحتفظ به في صندوقه ولا يظهره ، فاذا أظهره بعدئذ ، وحاول التعامل بـه ، سيق الى السجن .

فلم تتمالك زينب من الهتاف :

– يا لله .. أعدل هذا ؟

قال حمدان ضاحكا :

– ماذا ؟

– أن يسجن امرؤ ويذل لاحتفاظه وتعامله بمال غير عربي ؟

– ما لهذا يسجن ويذل .

– لمَ اذن ؟

قال ، وقد ارتدت لهجته طابع الجد :
— لا استقلال ، ولا حرية ، ولا عزة لدولة لنقدها طابع غير طابعها القومي .. يكون النقد الجديد العربي اذن رمز استقلال دولتنا وحريتها وعزتها ، ومن استهان به استهان بما لا تجوز الاستهانة به من مقومات هذه الدولة .
وكانت تصغي اليه في الظاهر ، وتفكيرها منصرف في الباطن الى الأمر الذي كان مصدر قلقها . ولحظ بعض ذلك ، فقال :
— أراك مرتبكة ، فما داعي ارتباكك ؟
قالت ، تتصنع الابتسام :
— لا شيء .. أفكر فقط .
— فيم ؟
— في ازدحام الجماهير حول بيت المال . أما هناك مكان آخر ، أو وسيلة غير هـــذه لاستبدال النقد ؟
— ما أدري .
فلم تتمالك من القول :
— مشكلة ..
ومرة أخرى لحظ حيرتها وارتباكها . قال :
— أين المشكلة ؟
فتصنعت الابتسام ، وقالت :
— في وقوفك بين الجماهير ، فمن يدري كم من الوقت ستقف ليصل الدور اليك .
— لا عليّ . المهم ألا نخالف الأوامر ، ونعرض أنفسنا للجزاء .
واستطرد قائلا :
— ما عندنا من الدنانير الرومية ؟
— عندنا منها ألف وبضعة عشر دينارا .
— ومن الدراهم الفارسية ؟
— لا أعلم مئتان ، مئتان وخمسون ، لا أكثر .
— ما همّ . مهما يكن العدد حتم علينا استبداله ، درهما بدرهم ، ودينارا بدينار .
قال هذا وانصرف .

° ° °

عندما أصبحت زينب وحدها ، أسرعت الى مكان خفي في البيت ، وأخرجت منه صندوقة صغيرة ، وفتحتها . وكانت ترتجف من فرط ما يداخلها من القلق والجزع ، واذا في الصندوقة دنانير ، راحت تعدها : واحد ، عشرة ، عشرون .. مائة ، مئتان ، خمسمائة .
وكادت تفقد صوابها . فهذه الخمسمائة من الدنانير قضت العمر في توفيرها وجمعها ، وفي الحفاظ عليها . فكيف يمكنها التصور أنها ستصبح لا قيمة لها في مخبئها ان هي لم تسرع مع جماهير المسرعين الى استبدالها ؟
ولم يكن من السهل عليها أن تفعل .
خمس عشرة سنة مرت عليها في بيت زوجها ، وهي تتظاهر بكونها لا تملك درهما خاصا بها . فكيف يمكن أن تقول للرجل الذي أحبها ، واحترمها ، وصدقها طوال هذا الزمن ، كيف يمكن أن تقول له انها كانت غير صادقة في تظاهرها ؟
وبلغ همها وقلقها الذروة . لا الاعتراف للزوج هين ، ولا الوقوف بباب بيت المال من الحكمة ، فقد يراها البعض ممن لهم بها وبزوجها معرفة ، وينفضح أمرها .
ورأت أن تستنجد بالله :
— أللهم ، أهدني سبيل الخروج من حيرتي ومأزقي . دعني لا أخسر المال الذي قضيت السنوات الطويلة أجمعه ، ولا ثقة الرجل الذي لثقته بي قيمة أغلى من المال عندي .
وسمعت طرقا على الباب . وخفق قلبها ، وكأنه يخفق على شيء من الأمل يأتيها على يد الطارق .
ولم يكن الطارق غير امرأة عجوز اشتهرت بمعرفة الأخبار ونقلها ، وكانت زينب ترتاح أحيانا الى مجالستها والتحدث اليها . وما كادت تفتح الباب وتراها حتى أحست كأنها تحمل خبرا ، فسألتها :
— ما وراءك ؟
— لا شيء غير خبر النقد العربي الذي فرض الخليفة التداول بـه .
— صحيح هذا الخبر اذن ؟
— صحيح . فاذا كان عندكم مال مدخر ، فعليكم الاسراع في استبداله من بيت المال ضمن المهلة المحددة .
قالت زينب متحفظة :
— مال مدخر .. أنى لنا المال ندخره ، وزوجي تاجر صغير يكاد لا يكسب أكثر مما فيه سد الحاجة ؟
قالت العجوز متضاحكة :
— البركة في زوجك وفيك ، يا ابنتي . كل من في الحي يعلم أنكم ، وان لم تكونوا مـــن ذوي الثراء الواسع ، لا ينقصكم شيء مما يوفر لكم أسباب الرفاهية .
— الحمد لله ..
— .. على كل حال . وأرجو ألا تفسري الغاية من مجيئي اليك بغير واقعها ، وأنت تعلمين مقدار مودتي لكم ، وغيرتي بصورة خاصة عليك .
وكانت تبدو صادقة بقولها . وزينب في أمس الحاجة الى من يحمل عنها شيئا من همها ، فما يمنع أن تكون هذه العجوز هي التي تحمل عنها هذا الشيء من الهم ؟
ولم تتردد في القول لها :
— لا يخامرني شك في صدق مودتك وغيرتك ، ولذا أرى أن أتخلى عن تحفظي وأفضي اليك بأمر .
قالت العجوز ضاحكة :
— .. منه امارات القلق التي أراها مرتسمة منذ البدء على وجهك . لا شك في أنه يتعلق بالموضوع الذي جئتك بخبره .
— هو ما قلت .
— وتحفظك في القول يعني أن لديك مالا تحاذرين أن يصل خبره الى زوجك .
— هذا هو الواقع .
— وما في الواقع هذا من مأخذ عليك .
وراحت تهون الأمر :
— مثلك تفعل ربة كل بيت ، كل سيدة عاقلة واعية . الاحتياط للغد فضيلة ، وفضيلة يكـــون ادخارك بعض المال لغدك ، فما القيمة التي لديك ؟
— خمسمائة دينار .
— لا شيء هي . ولا علم لزوجك بها ؟
— لا علم له بها ، وهذا مصدر همي وقلقي ما حسبت أن في كتماني أمرها عنه كذبة . وأني سأجد نفسي ، في يوم من الأيام ، مضطرة الى الاعتراف لـه بكذبتي .
— وما يضطرك الى ذلك ؟
— اضطراري الى استبدال القيمة بمثلها من دنانير الخليفة . فالوقوف على باب بيت المال مع الواقفين أمر لا طاقة لي عليه ، خاصة وأن

انظار الكثير من المعارف ستتركز عليّ . ولا يعتم خبري أن يصل الى زوجي ، وتظهر حينئذ الكذبة ، التي أفضل الموت على اظهارها .

— لا يخلو موقفك من حراجة .

قالت العجوز هذا وسكتت ، وكأنها تفكر في حل لمشكلة . وما لبثت أن وجدت لهذه المشكلة حلا ، فاستأنفت قائلة :

— ما قولك لو أغنيتك عن الوقوف في باب بيت المال ؟

قالت زينب مهتمة :

— كيف ؟

— تعرفين جار حينا التاجر أبا زيد الكوفي .

— ذلك الرجل المشهور بشحه ؟

— وباغتنامه كل فرصة لتضخيم ثروته .

— وما شأنه في موضوعنا ؟

— نحمل اليه الدنانير التي لديك ، فيبدلها لنا بدنانير جديدة ، لقاء عمولة .

— وما قدر عمولته ؟

— لأدري . ومهما تكن هذه العمولة تظل تأديتها سهلة ما دامت ستحل لنا المشكلة .

— صدقت ، فمتى نمضي اليه ؟

— يحدد هو الموعد . واذا شئت مضيت على الفور ، وسألته تقديم هذه الخدمة لنا . ووافقت زينب شاكرة .

° ° °

في كل زمان ومكان رجال من طراز أبي زيد الكوفي .. هذا النوع من الرجال همه جمع المال ، ولا فارق عنده في أن يكون هذا الجمع حلالا أو حراما . وفي الحياة فرص ، على من كان مثله أن يعرف كيف يغتنمها .

ودوّى خبر النقد الجديد العربي في أذنيه ، والى أعماقه تغلغل الدوي . انها لفرصة ..

كثيرون من الناس البسطاء سيداخلهم الشك في قيمة هذا النقد ، بالنسبة الى النقدين الرومي والفارسي ، ومنهم من تفرض عليه ظروف معينة عدم البوح بما عنده من هذين النقدين ، ولن يتردد في استبدالهما سرا اذا وجد من يسهل له السبيل الى ذلك .

والفرصة هنا ، وعليه ، هو أبوزيد ، اغتنامها . والأمر يحتاج الى شيء من الدعاوة ، الى من يرشد الباحثين عن أمثاله اليه . فاذا له في الحي ، كما شاء ، دعاة .

ومن هؤلاء الدعاة ، كانت العجوز زهرة .

ولما أقبلت عليه بخبر زينب ودنانيرها ، انفرجت أسرته ارتياحا ، وقال لها :

— عرفتك سمسارة زواج ، ولم أعهد فيك مثل هذه المهارة في سمسرة الأعمال !

قالت ضاحكة :

— منك تعلمت ألا يضيع المرء فرصة للكسب ، فهلا رأيت في هذه الصفقة كسبا ؟

— يتوقف هذا على العمولة .

— وكم هي ؟

— تتوقف على وضع صاحبة المال .. أبدون علم زوجها تريد استبداله ؟

— يجهل زوجها أنها ذات مال .

— يعني أن الخمسمائة دينار التي معها ادخرتها خفية عنه ، وتريد أن يبقى أمرها سرا لا يجاوزنا نحن الثلاثة ؟

— مهما يكلف الأمر .

قال ، وقد برقت أسرته مرددا :

— مهما يكلف الأمر ..

— في حدود المعقول .

— في حدود المعقول طبعا .. اذهبي وعودي بها اليّ .

— وأنا ، ما نصيبي من كسبك ؟

— خمسة بالمائة ... قليل ؟ .

— عشرة بالمائة .

— كثير ، من كسب في حدود المعقول .

وقالت تقابل الخبث بالخبث :

— معقول التجار الذين أنت واحد منهم .

وأكملت ضاحكة :

— في حدود المعقول هذا سيكون كسبك ، والعشرة بالمائة التي تؤديها لي تكون هي كذلك في حدود المعقول .

قال مستسلما :

— قاتلك الله من عجوز . اذهبي . ولك ما يرضيك .

° ° °

كانت زينب بانتظار العجوز زهرة على أحر من الجمر ، فالخوف على دنانيرها كان قد جعلها فريسة قلق يزداد في كل ساعة تمر ، وبأي ثمن كان تريد استبدال هذه الدنانير .

بشيء من الخسارة ؟ ليكن .. أليست خسارة البعض خيرا من خسارة الكل ؟

وان لم يكن أبو زيد الكوفي هو من يحل مشكلتها ، يحول دون ظهور الكذبة التي أخفتها حتى الآن عن زوجها ، فمن يمكنه حل هذه المشكلة ؟ لا شك في أن الله هو الذي بعث زهرة للتوسط بينه وبينها .

وعادت زهرة ، ومضت بها الى أبي زيد . وكاد قلبها يتوقف عن الحركة ، عندما قال لها هذا : ان دنانيرها العربية تخسر خمسة وعشرين بالمائة من قيمتها . قالت :

— خمسة وعشرين بالمائة تخسر هذه الدنانير؟!

قال متصنعا الجد والصدق :

— على الأقل . وأنا ، لولا صديقتنا زهرة ورغبتها في أن أقدم لك هذه الخدمة لما كانت لي مصلحة في ابدالها لك .

ورددت زينب :

— خمسة وعشرون بالمائة ؟!

قال مفصلا :

— عشرون منها لبيت المال .

— لبيت المال ؟

— فرق وزن الذهب .

— والخمسة الباقية لك .

— عمولة .. أتستكثرينها ؟

— ليست هذه أهم ما في الأمر .

وتدخلت زهرة ، كمن تريد دعم موقف زينب . وقالت :

— زوجها من تعرف ، أحد صغار التجار المسرفين ، ما يدخل الى يده لا يصل الى جيبه .

قال ساخرا :

— ولذا ظل صغيرا .. أسطورة الكرم الحاتمي هو أحد ضحاياها ، وكان يجب أن تكون له امرأة عاقلة لتدخر شيئا من المال خفية عنه .

وقال لزينب ، مطريا عملها :

— عافاك الله احتفظي بمالك . واياك أن تدعيه يعرف به ، فيبدده بجهله . واعرابا عن تقديري لك أتنازل عن كسبي ، وبدلا من حسم خمسة وعشرين بالمائة أكتفي بالعشرين ، بالقيمة

العائدة لبيت المال ، فهل يرضيك تنازلي هذا ؟
— أجل ، واليك بالمال .
قال ، كاتما ارتياحه :
— نعده ، وننقدك أربعمائة دينار .
خمسة بأربعة .. خسارة كبرى ، ولولا خوفها من عقبى التردد ، في مراعاة الظروف التي تفرضها ، لطار صوابها دون الرضى بها .
وعرفت العجوز الماكرة ما يدور في خلدها ، فتصنعت ما ليس من شيمتها ، وقالت لها :
— عوضك الله ، يا ابنتي .
وعادت زينب الى البيت ، كمن تعود من تتبع جثمان حبيب الى القبر ، ومع ذلك فقد كان عليها أن تتكتم وتتجلد لئلا تضطر الى الافضاء بسرها لزوجها .
ورجع حمدان من بيت المال . ولم يكن على شيء مـــن الهم ، الأمر الذي أثار دهشتها ، فقالت له :
— هل استبدلت المال ؟
— نعم استبدلته .
— بكم الألف ؟
قال ، وقد أخذته الدهشة :
— بكم الألف ؟
قالت ، وقد ابتدأ صدرها يعلو ويهبط :
— بثمانمائة ؟
قال ، وقد ازدادت دهشته :
— بثمانمائة !.. لماذا ؟
قالت مرتبكة :
— لأن نقدنا العربي الجديد ينقص ذهبه عشرين بالمائة عن ذهب غيره وزنا .
قال ضاحكا :
— ينقص ذهبه .. تقولينها وكأنك إحدى المتخصصات بعلم النقد والمال ، فعمن ترددين هذا ؟
وتوقف الكلام في حلقها ، فأردف قائلا :
— عن عجائز الحي . ما عند عجائز الحي بعد مما لم يصلنا خبره ؟!
قالت بعصبية ظاهرة :
— دعنا من المزاح ، وقل لي : بكم استبدلت الألف دينار ؟
قال ، وقد ارتدت لهجته طابع الجد :
— بألف دينار .
— بألف دينار .. الدينار بدينار . لم تنقص قيمته اذن ؟
— لم تنقص قيمته . عن غير عجائز الحي ترددين هذا . فهل تدرين لأي خطر يعرضنا ترديده ؟
وشدد على الكلام قائلا :
— لخطر السجن والتغريم . أما سمعت المنادي يقول : كل من يرفض قبول النقد الجديد ، أو حاول التعامل بأي نقد سواه ، أو حدثته نفسه بالتقليل من قيمته ، عوقب بالغرامة أو بالسجن ، أو بالعقوبتين معا ؟
— السجن والتغريم ..؟
وأطل الحقد من عيني زينب . لقد عبث أبو زيد بها ، وعلى اللعين أن يلقى جزاء عمله ، وعادت لا تقوى على كتمان أمرها ، فقالت :
— لن نكون نحن من يسجن ويغرم . يسجن ويغرم من يغتنم الفرص للعبث بنا ، ولتضخيم ثروته من عرقنا ، ووفر عمرنا .
وأدهش قولها حمدان ، فقال :
— لك قصة ، يا امرأة .
قالت ، والقول يتعثر على لسانها :
— أجل لي قصة . وعفوا أسألك عن قصتي ، وان تكن غير مـــا يستوجب اللوم ، ويسأل العفو عنها .
وأطلعته على ما كان من أمرها .

° ° °

بلغت دولة العرب في عهد الأمويين ذروة عظمتها ومجدها .. في الشرق والغرب فتوحات عسكرية . وفي دمشق العاصمة فتوحات من نوع آخر ، ليس التحرر من النقد الأجنبي غير واحد منها .. النقد الرومي من جهة ، والنقد الفارسي من جهة أخرى . وكان عبد الملك ابن مروان على كرسي الخلافة ، عندما فكر مليا في أمر النقدين ، فاذا هما قيدان من أثقل القيود في يدي دولته . قال :
— نبدلهما بنقد عربي .
وكان النقد العربي الأول . وأقبل الناس عليه ، وكان لا بد من اغتنام بعضهم الفرصة للاتجار به ، على نحو ما تقدم .
وراح حمدان الى صاحب الشرطة بما سمع من قصة زينب ، وصاحب الشرطة بالمرصاد لكل من لا يتقيد بأمر أمير المؤمنين . قال :
— أبو زيد التاجر .. أعرف خبث الرجل . أيكون لم يسمع النداء ؟
قال حمدان :
— النداء سمعه ، وتصامم عنه .
— وتصامم عنه . جريمته اذن مزدوجة : التقليل من قيمة نقد الدولة ، والهزء بالأمر الهادف الى صون هذا النقد .
— يضاف اليهما العبث بربة بيت بسيطة تملك مالا ادخرته درهما فدرهما لوقت الشدة .
— يقدم حسابا عن هذه كلها .
قال صاحب الشرطة هذا ، وأمر باحضار العجوز زهرة أولا . ولما أحضرت ، قال لها :
— اقتربي يا امرأة . أتعرفين أين أنت ؟
فتلعثمت ، والخوف آخذ منها . فاستطرد قائلا :
— فـــي دار الشرطة ، وصاحب الشرطة يخاطبك ، فاياك أن تحاولي تضليله .
— أمة أنا لسيدي .
— سيدة كوني لا أمة ، والسيدة الحرة تقول الحق ، ولو ان قوله عليها . أتعرفين هذا الرجل ؟
وأشار الى حمدان ، قالت :
— هذا جارنا حمدان .
— وتعرفين امرأته ؟
— امرأته زينب .
— اياها .. ما حكايتك معها ؟
قالت متغابية :
— حكايتي معها ..؟!
— ومع أبي زيد التاجر ؟
— ومع أبي زيد ..؟!
— نعم .. حكاية الدنانير الرومية واستبدالها .
— الدنانير الرومية ..؟!
— بكم بدلها ؟
— مـــن ؟
أبو زيد ، وكم أعطاك سمسرة عليها ؟
— ما أعطاني ..
ونفد صبر صاحب الشرطة ، فنادى :
— حاجب .

وأقبل الحاجب ملبيا :

— سيدي ..

— تسلم هذه العجوز الى الشرطة ، وتطرح في السجن على الفور .

وأحست العجوز كأن الدنيا تدور بها ، فخرت على الأرض متوسلة :

— بأبي أنت وأمي . مهلا ، فأصدقك الخبر . وحكت له الحكاية .

° ° °

المنادي يعلن : ليكن معلوما .. المهلة المحددة لاستبدال النقد الغريب بالنقد العربي تنتهي بعد غد ، فعلى من لم يتقدم لاستبدال نقده أن يبادر الى بيت المال لاستبداله قبل فوات الأوان .

وفي بيت المال وخارجه تحتشد الجماهير ، وكل ينتظر دوره لاستبدال ماله . ومن خلال الحركة واللغط اللذين يسودان المكان ، ارتفع صوت ينادي :

— أبو زيد الكوفي يدخل على الفور .

ودخل أبو زيد . وكان صاحب الشرطة في استقباله ، فقال له ضاحكا :

— يدهشك يا أبـا زيـد أن تدخل الى بيت المال ، وتقع على صاحب الشرطة . وتابع قائلا :

— كم معك من المال ؟

واذا كان وجود صاحب الشرطة في بيت المال أدهش أبا زيد ، فان السؤال الذي طرحه كبير رجال الأمن ذاك عليه ملأ قلبه خوفا ، فقال والقول يتعثر في فمه :

— عشرة .. عشرة آلاف دينار .

— وهذه المرة الثانية التي تأتي فيها الى هنا لاستبدال نقدك ، فما القيمة التي استبدلتها في المرة الأولى ؟

— عشرة آلاف .. يا سيدي

— وبكم بدل لك الدينار ؟

— الدينار ..؟!

— بدينار . أليس كذلك ؟

— بلى .. يا سيدي .

— والآن ، أتدري أن قيمة النقد العربي الجديد هبطت البارحة عشرين بالمائة ؟

كاد الذعر يصعقه ، وقد عرف ما يعني صاحب الشرطة بقوله ، فهتف قائلا :

— سيدي ...

ولم يقو على متابعة الكلام ، فقال له صاحب الشرطة ضاحكا :

— هذا ما حصل . واليوم ، سجلت قيمة هذا النقد هبوطا آخر قدره عشرون بالمائة .

وانقضت الصاعقة على رأس أبي زيد عندما تابع صاحب الشرطة ، وقد ارتدى قوله طابع الجد :

— وعلى هذا يؤدى لك ، بدل العشرة الآلاف التي تحمل ، ستة آلاف دينار .

وأجهش الرجل بالبكاء ، فقال رجل الأمن :

— لا تبك ، يا رجل ، أحرى بالبكاء منك المرأة التي لم تتورع عن تزوير الحق لسلبها مالها .

— رحماك ، يا سيدي ..

ورجل الأمن والعدالة يعلم أن من رحم المجرم ظلم البريء ، فقال :

— ما رحمت لترحم .. خفضت نقد الدولة زورا لكسب القليل من المال ، وأنت تعلم أن القليل الذي كسبت كثير بالنسبة الى صاحبته ، والى الزمن الذي قضته هذه في جمعه لوقت الشدة .

فأنت متهم :

أولا ، بالاحتيال على مؤمنة بسيطة شريفة وسلبها ذخر غدها من مال جمعته بشق النفس والحرمان . وعلى ذلك تكون الأربعة الآلاف دينار التي تغرم بها جزاء هذا الاحتيال .

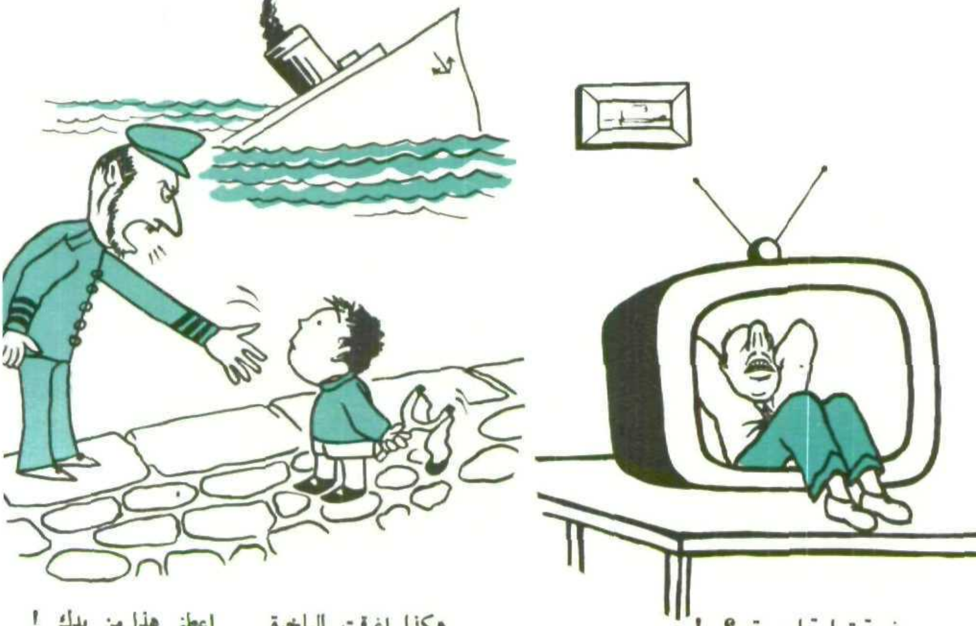
وثانيا ، باثارة الشك حول قيمة النقد الذي أصدرته الدولة لاستكمال أسباب سيادتها ، وذلك هو الأهم والأخطر ، وسينظر القضاء فيه ، ويعاقبك عليه .

كاريكاتير

خطوة صغيرة الى الوراء يا عزيزتي



فـترة استراحـة ؟ ! . .





هكذا اغرقت الباخرة . . اعطني هذا من يدك !



الجوانية

تاليف الدكتور عثمان أمين
عرض وتحليل
الأستاذ محمد عبد الغني حسن

يلفت النظر في هذا الكتاب — قبل التعرض لموضوعه — ذلك الاهداء الكريم من المؤلف الى أمه ، على الرغم من أنها أمّية .. وماذا تغني القراءة والكتابة اذا كان صاحبها أمّي الفكر ؟ وما أبرع صديقنا الدكتور عثمان أمين وهو يخاطب أمه في اهداء هذا الكتاب اليها قائلا : « صحيح أنك لست بقارئة ولا كاتبة على المعنى (البرّاني) المألوف ، ولكن أصح منه أنك — في نظري — أقرأ الناس وأكتبهم على المعنى (الجوّاني) الأصيل.. »

فكثير من الناس لا يقرأون ولا يكتبون قد أنجبوا للانسانية مفكرين أصلاء . وقد أحسن المؤلف هنا استغلال هذه الفكرة في التأصيل لقضية « الجوّانية » التي هي موضوع الكتاب كله . فهو يعترف في السطور الأولى من اهدائه بأن أمّه هي أول انسان استطاع أن يعلمه ، بطريقة عملية نفاذة بوادر الجوّانية التي تتركز في الايمان الراسخ بالله ، والثقة الوطيدة بالنفس ، والاعتقاد الجازم بالحرية .

والحق أن حب الدكتور أمين لأمه واعترافه بفضلها — على الرغم من عدم معرفتها القراءة والكتابة — أمر غير منكور . فقد ترجم يوما — منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما — قصة « صادق ، أو القدر (١) » لفولتير ، وخطر له ، اذا قدّر لها أن تنشر ، أن يجعل اهداءها الى أمه « فاني لا أرى لأحد من الناس فضلا عليّ أكثر مما أشعر به نحوها . أنا مدين لها في الحقيقة بما غرست في نفسي من الثقة بالله وبنفسي .. »

فالثقة بالله ، والايمان الراسخ به ، ثم الثقة بالنفس ، من دعائم السلوك العملي للنظرة « الجوّانية » التي يدعو اليها الدكتور عثمان أمين ، والذي لقي في سبيل الدعوة لها هجوما من النقاد ، ودفاعا من مؤيديه ، فكان في هذا التوازن بين الهجوم والدفاع عزاء عما يلقاه صاحب الفكر من معارضات ومهاجمات .

ولكن يصرفنا اهداء الكتاب عن الكتاب نفسه ، الا بقدر ما يتصل بموضوع « الجوّانية » التي بني عليها البحث كله . والآن يحق لنا أن نتساءل عن الاتجاه الجوّاني : ما الذي يعنيه به المؤلف ؟ وهل للجوّانية تعريف كتلك التعريفات الجامعة المانعة عند المناطقة ؟ لقد كنا ننتظر في القديم الطويل — الذي جاء معقّبا للاهداء — تعريفا بالمذهب على نحو ما يصنع المفكرون في التقديم لمذاهبهم ، ولكنّ المؤلف في نهاية تقديمه ينبّه الى انه ليس يوجد للجوّانية — من حيث هي فلسفة مفتوحة — تعريف أو حدّ بالمعنى المنطقي الدقيق للحدود والتعريفات ، فالجوّانية — عنده — على الطريق دائما ، ولا تعرف الوقوف ، ولا تريد الانغلاق ..

وقد أدرك المؤلف — وهو الباحث دائما عن حقائق الأشياء — أن نفس القارىء لا تزال بحاجة الى السؤال عن ماهية الجوّانية . فبدأ فصلا في صفحة ١١٣ يقول فيه : « قد يسأل القارىء عن « الجوانية » ما هي ؟ فأقول انها عندي « فلسفة » . وخير من هذا : « طريقة في التفلسف » ، ولا أقول أنها مذهب ، لأن المذهب من شأنه الانغلاق متى رسمت حدوده مرة واحدة . أما الفلسفة أو التفلسف فمفتوح على النّفس وعلى الدنيا .. »

أنستنبط من هذا ومن غيره أن « الجوّانية » — عند المؤلف — هي سلوك في الحياة أكثر مما هي قواعد مذهب ينفتح وينغلق تبعا لاختلاف التعاريف وتباين الحدود ؟ ليكن ذلك !

فلنكفّ عن طلب تعريف لها ولنلتمس مظاهرها في الأدب والحياة ، وان كانت هي في الحقيقة شيئا وراء المظاهر الخارجية . ولعل اسمها المقابل على سبيل التضاد « البرّاني » ، هو الذي يدل على نظرتها النافذة الى جوهر الأشياء والأشخاص . وفرق شاسع بين مفهوم « الجوّاني » ومفهوم « البرّاني » . فالنظر البرّاني يعتمد على «الواقع» وحده ، أو على « المتحققات » أو نظام الوقائع الراهنة ، والمعطيات المباشرة . ومعلوم أن « الواقع » — كما يقول أحد الفلاسفة ليس هو كل شيء ، أما « الأمكانيّ » — أو ما حقه أن يكون — فهو كل شيء . فالواقعيون هم الذين لا يحسبون حسابا الا لما هو ماثل وواقع ، أما ما وراء الواقع ، وما يجاوز الاحصائيات والمشاهدات فتعجز أبصارهم — ولا أقول بصائرهم كما قالها المؤلف

(١) لقد ترجمها الدكتور طه حسين بعنوان « زديج ، أو القضاء » ونشرتها مجلة « الكاتب المصري» في أغسطس سنة ١٩٤٧ .

سهوا – عن ادراكه ورؤيته .

فالجوانية لا تعتمد على الحواس وحسب ، ولكنها تعتمد على ما وراء ذلك ، لأنها في صميمها تنطوي على ضرب من « الميتافيزيقيا » يمكن تسميته « بالرؤية الواعية » ، وهي ليست رؤية الحواس العضوية ، بل هي رؤية روحية نفسية داخلية ، يمكن أن نسميها الرؤية « بعين البصيرة » .

وليس ذلك هو كل ما بين الجوانية والبرانية من فروق . فالبرانية تعتمد على الحفظ والترديد على حين تعتمد الجوانية على الفهم والاستقلال بالفكر ازاء الناس وأزاء الأشياء. فالبرانية آلية غير واعية ، وهي مشدودة الى التقيد بالحرفية شدا يضيع معه الفهم والتعمق في النظر الى الأشياء . أما الجوانية فتستند على تزكية « الوعي » الانساني ، وتحرير الفكر من التقيد الذي يشل التفكير .

ولعل أجمل ما في الفلسفة الجوانية هو بعدها عن النظرة المادية الحسية التي قد تخطىء أحيانا ، كما نرى في خداع الحواس . وأجمل ما فيها كذلك ايمانها الراسخ بأن القوة الحقيقية هي قوة الروح والمثل الأعلى . فهي محاولة متجددة للاعلاء من قوة الانسان الاصيلة ، وهي القوى المثالية الروحية التي تعجز أمامها القوى المادية في الحياة .

والفلسفة الجوانية – كغيرها من الفلسفات الصحيحة الواعية – تنأى بالانسان عن أن يكون انعزاليا ، أو من سكان الابراج العاجية ، أو من المتشبثين بأسباب الوهم والخيال . انها فلسفة عملية تصحح سلوك الانسان في الحياة على أسس من الحرية ، والفهم ، والوعي ، والرؤية الواعية ، والخلق السوي . والفيلسوف الذي يراعي مواقع الأفلاك والنجوم ويغفل عما في نفسه وعما في مجتمعه الانساني ، هو فيلسوف سلبي لا نفع منه يذكر للحياة والاحياء .

لقد كان الامام . محمد عبده ، فيلسوف الوعي الديني ، من أصحاب الفلسفة الجوانية التي تأبى الانعزال والانطواء . والاستشهاد بالشيخ محمد عبده هنا ليس من عندنا ولكنه من عند الدكتور عثمان أمين الذي لفت نظره اليه نسخة من تفسيره لجزء عم ، أحد الكتب الأربعة المودعة في خزانة والده ، ولم يكن في تلك الخزانة سواها .

وذكر اسم الشيخ محمد عبده هنا يسوقنا الى الحديث عن علاقة الروح بين الاستاذ الامام وبين الدكتور عثمان أمين . فلقد كان تتلمذ عثمان أمين على المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق – تلميذ محمد عبده – سببا في اهتمام الدكتور عثمان بفلسفة الاستاذ الامام واختيارها موضوعا لرسالة الدكتوراه من السوربون ، كما كانت سببا في أن يكتب عنه كتابين أحدهما عنوانه « محمد عبده » وثانيهما عنوانه « رائد الفكر المصري الامام محمد عبده » . والحق ان اسم محمد عبده قد تردد في كتاب « الجوانية » قرابة ثلاثين مرة .

وكتابات محمد عبده ككتابات ابن تيمية تحمل في صميمها رسالة تجديدية اصلاحية واعية ، ترمي الى تحقيق التغيير الجواني ، الذي هو شرط للتغيير البراني ، تصديقا لقوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. »

والحديث عن هذه الحفنة من الاعلام يسوقنا الى الحديث عن المائتين وأكثر من الاعلام الشرقية والغربية ، والقديمة والمحدثة التي أوردها المؤلف في كتابه ، ووضع لها في آخر الكتاب كشافا أبجديا يسهل الرجوع اليها ، والوقوع عليها . فان مثل هذا الكشاف يدل على العقلية المنظمة ، والذهنية المرتبة التي نعرفها عند صديقنا الدكتور عثمان أمين .

ولم يكتف المؤلف بهذا المعجم للأعلام ، فأضاف اليه كشافا أبجديا بالمصطلحات الفلسفية الكثيرة والعبارات المنطقية التي يصادفها القارىء في هذا الكتاب . والتي دارت في الصفحات مرات ومرات .

وواضح أن هذا التنظيم والترتيب والتيسير على القارىء هو سمة من سمات العقلية الواضحة التي يمتاز بها المؤلف في تعبيراته ، وفي تأديته للأفكار على أظهر وجوهها فما عرفت من الدكتور عثمان أمين – وقد عرفته وصادقته لأكثر من ربع قرن – غموضا في فكرته ، أو خفاء في عبارته ، أو ابهاما في أدائه . انه لا يزال يقلب المعنى ويديره في براعة وتيسير ، حتى يجعله مأنوسا عند قارئه وسامعه على السواء . ومن هنا نجح في اقناع من يتحدث اليهم في المسائل الفلسفية التي تلازم الغموض عند بعض المؤلفين . ونضعه في هذا قرينا للأساتذة والدكاترة : مصطفى عبد الرزاق ، وأبي العلا عفيفي ، ومحمود الخضيري ، وأحمد فؤاد الأهواني ، وزكي نجيب محمود ، وزكريا ابراهيم ، ومن اليهم من أصحاب العبارة الفلسفية المشرقة الواضحة .

ويلتقي مع وضوح الدكتور عثمان أمين صراحته التامة الى حد الافضاء الى قارئه بخصوصيات والده ، وكثرة زواجه ، والخلاف العائلي بين المؤلف ووالده . وما كنت أود لهذه الخصوصيات أن تظهر في معرض الحديث عن « الجوانية » ! ولكن المؤلف كان حريصا على أن يعقد بابا من كتابه للحديث عن بوادر الجوانية عنده . فلم يكن له بد من التحدث عن حياته من القرية الى الجامعة .. وهكذا ساقه الحديث عن سيرته ونشأته ، الى الافضاء بما كان لديه مندوحة عن الافضاء به .

وقد يقال ان الباب الخاص ببوادر الجوانية عند المؤلف ويومياته وسوانحه المطوية ، هو باب لم يكن له محل في كتاب يتحدث عن الفلسفة الجوانية وأصول عقيدتها . ولكن الدكتور عثمان أمين « جواني » أصيل ، يرد الأشياء الى أصولها ، ويتعقبها الى أسبابها الأولى . وكان من هذا التعقب المتأني الدقيق فصله الممتع عن الجوانية في فلسفة اللغة العربية ، وفصله الآخر عن الجوانية في الأخلاق الاسلامية ، وفصله الخاص عما أعد الله به الأمة الاسلامية والعربية لتكون صاحبة رسالة جوانية .

بقيت كلمة حول حفنة قليلة من أخطاء مطبعية وغير مطبعية وقعت في الكتاب ، وكنت أرجو له السلامة منها . فبيت الشاعر أبي تمام الذي قاله في علة أحد ممدوحيه فصوابه هكذا بدون واو زائدة في أوله :

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت
ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

وبيتا عباس محمود العقاد – ص ٢٩ – اللذان جاء نقص في روايتهما ، صوابهما هكذا :

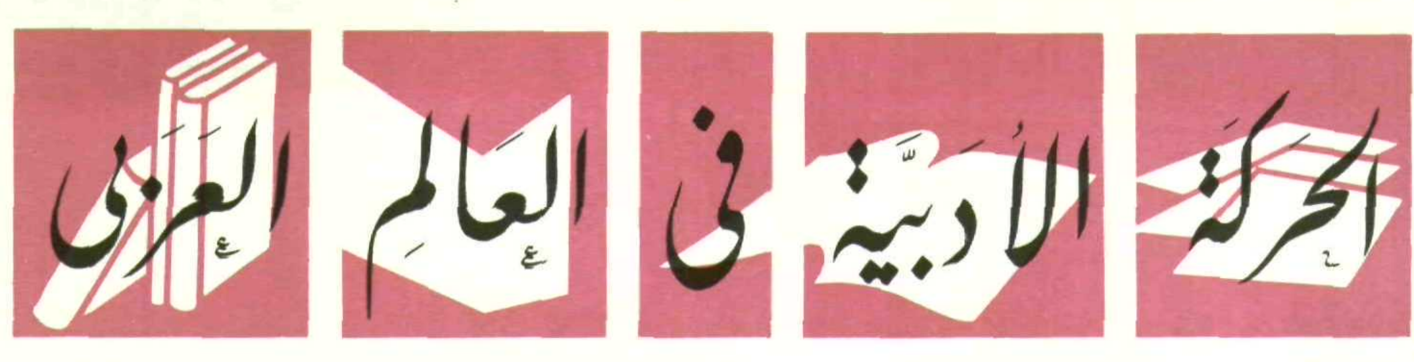
وأنا لمرآة لما في زماننا
تحدث عنه حيث ندري ولا ندري
تفيض لنا أفراحنا من نفوسنا
وما فاضت الدنيا لنا بسوى البشر

وبيت عروة بن الورد – ص ١٦٤ – صوابه هكذا :

أيا لله كيف حبست نفسي
على أمر ويكرهه ضميري ؟

واسم صاحب مجلة الرسالة هو أحمد – لا محمد – حسن الزيات ، كما ورد ، وهما في صفحة ٦٥ ، ولكنها – على كل حال – مآخذ « برانية » لا تحجب الجوهر الجواني الأصيل ، لهذا الكتاب القيم .

الحركة الأدبية في العالم العربي







• ظهرت طبعات جديدة من نفائس المعاجم اللغوية والفنية ، منها « محيط المحيط » في جزئين ، و « قطر المحيط » في جزئين وكلاهما للمعلم بطرس البستاني ، و « فاكهة البستان » للشيخ عبد الله البستاني ، و « مدّ القاموس » في اللغتين العربية والانكليزية وهو في ثمانية أجزاء من تأليف ادوارد وليم لين ، و « قاموس الذخيرة العلمية » انكليزي عربي للمستشرق الدكتور جورج برسي بادجر ، و « القاموس الفلكي » انكليزي عربي للاستاذ منصور حنا جرداق ، و « المعجم القانوني » انكليزي عربي للقاضي حارث سليمان الفاروقي .

• كذلك ظهرت طبعات جديدة من بعض كتب التراث منها « الأصمعيات – أخبار الأصمعي أبي سعيد عبد الملك بن قرب » تحقيق المرحوم الأستاذ أحمد محمد شاكر والأستاذ عبد السلام محمد هارون ، و « المغرب في حلى المغرب » الجزء الثاني الخاص بالأندلس لابن سعيد المغربي تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، و « رسالة الغفران لأبي العلاء المعري » ومعها « رسالة ابن القارح » من تحقيق الدكتورة بنت الشاطيء ، و « الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة » لأبي سعيد أبي الحسن علي ابن موسى الأندلسي تحقيق الأستاذ ابراهيم الابياري .

• من الدراسات الأدبية الجديدة ظهر كتابان في النقد هما « النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين » للدكتور اسحق موسى الحسيني ، و « النقد الأدبي – تاريخه ونظرياته » للأستاذ محمد عبد الرحمن شعيب ، وكتابان في المباحث الأدبية هما « الملتقطات » للأستاذ يوسف بن عيسى القناعي و « بحوث أدبية » للأستاذ عبد الصاحب شكر ، وكتابان في الدراسات الروائية هما « قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ » للأستاذ نبيل راغب و « أعلام الفن القصصي » لهنري ونالي توماس وترجمة الأستاذ عثمان نويّة

• من كتب السير التي ظهرت أخيرا هذه المجموعة « تراجم عربية » للأستاذ محمد عبد الغني حسن وفيه عرض لحياة صفوة من أعلام الضاد وآثارهم ، و « عبد الرحمن الأوزاعي شيخ الاسلام وامام أهل الشام » للأستاذ طه الولي ، و « ابن غلبون مؤرخ ليبيا » للأستاذ علي مصطفى المصراتي ، و « أبو الفرج الأصفهاني وكتابه الأغاني » للأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي ، و « بدر شاكر السياب – رائد الشعر الحر » للأستاذ عبد الجبار داود البصري ، و « جان دارك » للأستاذ عبد اللطيف محمد الدمياطي .

• من دواوين الشعر الجديدة التي أخرجتها المطبعة العربية حديثا هذه الطائفة : طبعة ثانية من الديوان الأول للشاعر الأستاذ محمود حسن اسماعيل الموسوم « أغاني الكوخ » ، و « لوحات شعرية » للأستاذ عبد الله كنّون ، و « شموع على الدرب » للاستاذ علي هاشم رشيد ، و « نبضات قلب » للأستاذ محمد حسين آل ياسين ، و « أغاني الليل » للأستاذ شكر الله الجرّ ، و « النار والطين » للأستاذ راضي صدّوق ، و « الموت في الحياة » للأستاذ عبد الوهاب البياتي ، والجزء الأول من « ديوان العثمان » للمرحوم الأستاذ عبد الله عبد اللطيف العثمان ، و « ديوان الرفاعي المنوّع » للأستاذ عبد المحسن الرفاعي .

• ترجم الدكتور عبد الرحمن بدوي عن الألمانية « الديوان الشرقي » للشاعر جوته ، وهو ما نظمه من شعر مستوحى من ربوع الشرق .

• صدر للدكتور عثمان أمين كتاب نفيس عنوانه « محاولات فلسفية » ، كما صدر للدكتور ملحم قربان كتاب « اشكالات » وهو يعالج قضايا فلسفية وفكرية شتى .

• قد ترجم الدكتور فؤاد زكريا « جمهورية افلاطون » لفيلسوف اليونان الكبير ، وهي ثالث ترجمة لهذا الكتاب ، اذ سبقتها ترجمة للمرحوم الأستاذ حنا خبّاز وأخرى اشترك فيها الدكتور محمد مظهر سعيد وقرينته الراحلة السيدة نظلة الحكيم . وفي الوقت عينه أصدر الدكتور فؤاد زكريا « دراسة لجمهورية أفلاطون » في كتاب مستقل درس فيه النظريات الواردة في هذا الكتاب .

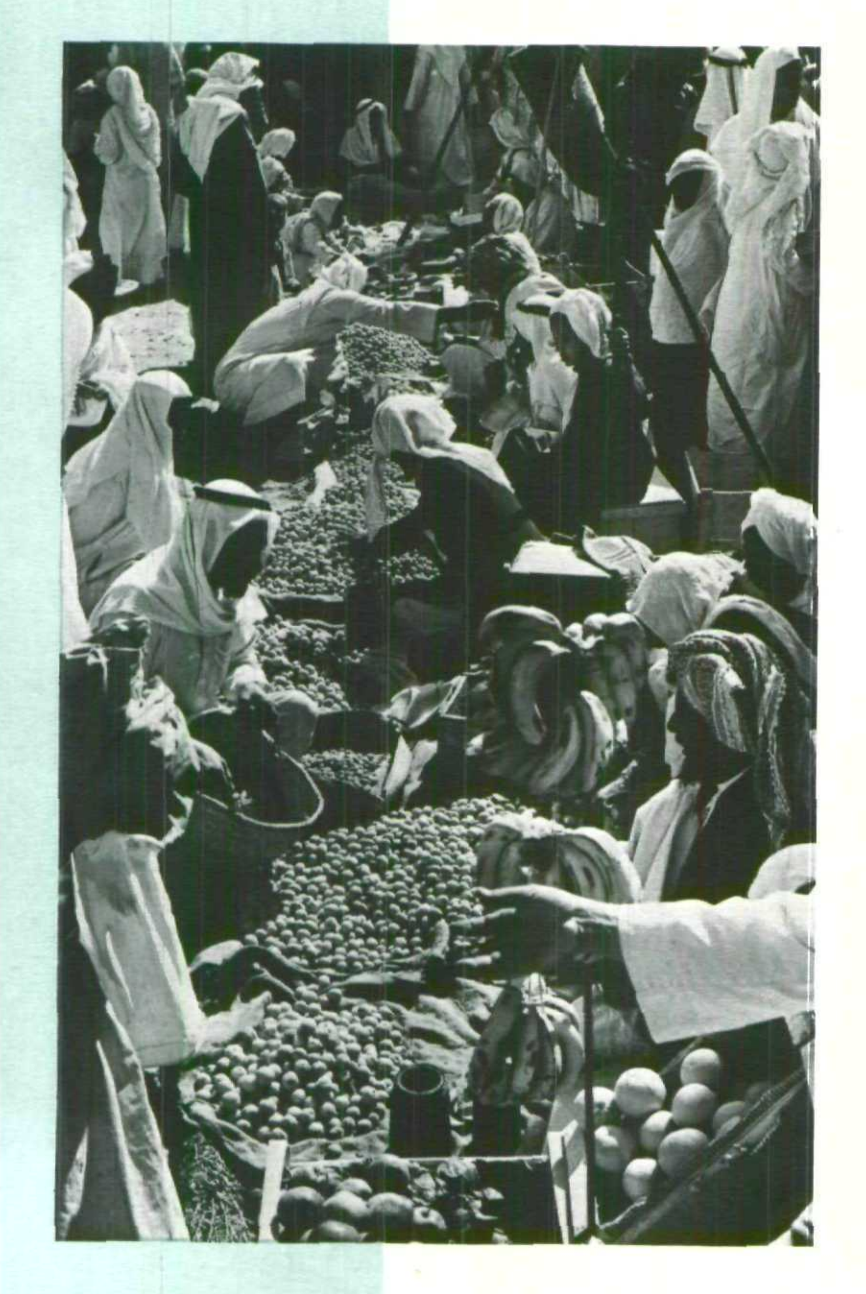
• في الأدب الروائي بألوانه ظهرت ثلاث روايات هي « خطى في الفراغ » للأستاذ ميخائيل معوض ، و « الظامئون » للأستاذ عبد الرزاق المطلبي ، و « خمسة أصوات » للأستاذ غائب طعمة فرمان . وصدرت للأديب الراحل الأستاذ طاهر الطناحي مجموعة أقاصيص عنوانها « نشيد الكروان » ، وهناك مجموعات أخرى منها « الأيام الخضراء » و « هذه اللعبة » وكلتاهما للأستاذ ثروت أباظة و « حياة قاسية » للدكتور شاكر خصباك . كما ظهرت مسرحيتان في مجلد واحد للأستاذ عبد المنعم سليم هما « السعادة الزوجية » و « القتيل » .

• من كتب التربية وعلم النفس التي صدرت أخيرا « قوة التفكير الايجابي » لنورمان بيل وترجمة الأستاذ يوسف اسكندر ، و « اعداد معلم المرحلة الأولى » للأستاذين مصطفى زيدان ونجيب فايق اندراوس ، و « دعوة المعلم العظيم » لداريا لال القاضي وترجمة الأستاذ زكي عوض ، و « مفهوم الحرية في التربية الحديثة » للأستاذين مصطفى زيدان ومحمود الشربيني ، و « القيم والعادات الاجتماعية » للأستاذ فوزي دياب .

• ظهرت في مجالات العلوم المختلفة مجموعة من الكتب مثل « ثروات جديدة من البحار » للدكتور أنور عبد العليم ، و « أعماق الكون » للأستاذ سعد شعبان ، و « البحوث العلمية الصناعية » للأستاذ علي الدولتلي ، و « المتالورجيا الفيزيائية » للدكتور أحمد سالم ، و « الموالح » للدكتور محمد مهدي العزّوني .

بلاد جميلة ، حباها الله المناخ العليل والماء السلسبيل والتربة الجيدة والأيدي النشيطة التي عمرتها ، فجعلت منها مزارع خصبة تنتج مختلف أنواع الخضار والحبوب والفواكه .

بلاد غامد وزهران



يعرض الباعة المتجولون سلعهم في كل قرية من قرى غامد وزهران يوما في الاسبوع .



جانب من احدى قرى بني عمرو ، وقد بدا في مقدمتها حقل من الذرة .

منذ أمد بعيد والشوق يخالجني الى رؤية منطقة الباحة نظرا لما سمعته من ابنائها من وصف جميل لها ، وواتت الفرصة بعد حين ، فاغتنمتها في رحلة ممتعة ، استطعت من خلالها أن الم بمختلف مرافق هذه المنطقة لأحمل للقارىء صورة صادقة عنها ، وعما يتوقع لها من مستقبل زاهر . ولن أتحدث في هذه العجالة عن الرحلة ومصاعبها والقرى التي زرتها ، ولكني سأقصر كلامي على المنطقة بصورة عامة من حيث مناخها ، وقبائلها ، وعاداتها ، ومواصلاتها ، والتعليم والعناية الصحية فيها ، وما الى ذلك .

الموقع والأمطار والمناخ

تقع منطقة الباحة ، أو بلاد غامد وزهران ، جنوبي الطائف ، وهي منطقة متسعة الارجاء ، تمتد من حدود بني مالك غربا الى حدود خذعم شرقا ، ومن حدود منطقتي قرية وبيشة شمالا الى حدود منطقة القنفذة جنوبا . وتقسم هذه المنطقة ، بالنسبة للقبيلتين الأساسيتين اللتين تسكنانها ، الى قسمين ، هما : بلاد غامد ، وبلاد زهران ، تفصل بينهما سلسلة من الجبال ، تعرف باسم « رهوة البر » ، وتمتد على طول المنطقة من الشمال الى الجنوب . ومنطقة غامد منطقة غنية بالمراعي والزراعة والمياه ، ولكن معظم ينابيعها تعتمد على نسبة سقوط الأمطار ، وتجف في أواخر الصيف . أما عن المناخ ، فمناخ الجبال معتدل قليل الرطوبة صيفا ، وبارد شتاء ، بينما مناخ وادي تهامة حار شديد الرطوبة صيفا ، ومعتدل قليل الرطوبة شتاء .

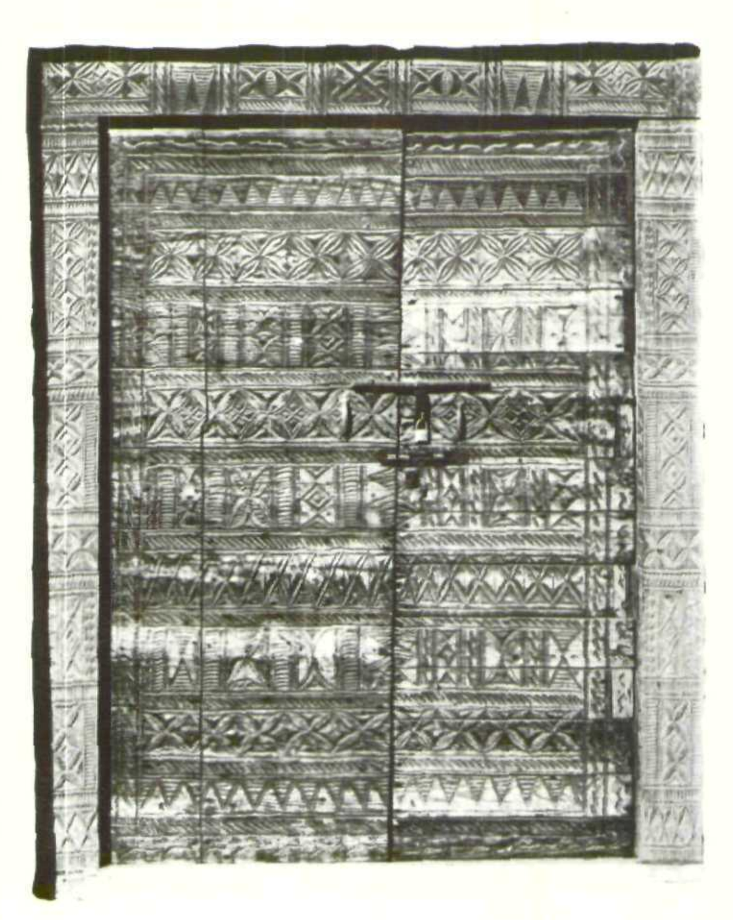
مقر الامارة

بقيت مدينة بلجرشي لمدة طويلة مقرا لامارة المنطقة ، الا أنه في السنوات الأخيرة الماضية ، انتقل مقر الأمارة الى مدينة الباحة ، وذلك لأنها تقع وسط مختلف مدن المنطقة . ويبلغ عدد سكان مدينة الباحة ٨٠٠٠ نسمة ، وهي تتطور وتنمو بشكل ملحوظ وفيها حركة عمران وبناء . ومعظم منازلها مبنية بالاسمنت على الطراز الحديث . أما المنازل القديمة فمبنية بالحجارة ، وهي سميكة الجدران ، على غرار بناء القلاع . ويشرف على امارة المنطقة أديب سعودي معروف ، هو سعادة الأمير سعود ابن عبد الرحمن السديري . وتتبع لإمارة المنطقة احدى عشرة امارة فرعية هي : غامد الزنات ، والمخواه ، والحجرة ، وبلجرشي ، والقيق ، وبيدة ، والقرى ، وبني حسن ، والمندق ، ودوس ، وقلوة . ولكل من هذه الأمارات أمير يتبع له شيوخ قبائل الامارة ، ويقفون عند رأيه . وفي مدينة الباحة تقع فروع مختلف الوزارات ، ورآسة محاكم المنطقة ، ودار البلدية ، ومدرستان للبنين ، احداهما متوسطة والأخرى ابتدائية ، بالاضافة الى مدرسة ابتدائية للبنات . ولدى البلدية العديد من المشاريع المهمة ، منها بناء مسلخ وسوق للخضار واللحوم ، وسفلتة شوارع البلدة الرئيسية .

قبائل المنطقة

ينتسب سكان المنطقة الى قبيلتين تدعى المنطقة باسمهما ، هما غامد وزهران . فتحت اسم غامد تنضوي خمس عشرة قبيلة هي : بنوعبد الله ، وشدا ،وبنو ختيم ، وبنو ظبيان ، وبنو كبير ، و الرهوة ،وبلجرشي ، وألبا الشهم ، ورفاعة ، والحلة ، والزهران ، والهجاهجة ، والمسلم ، والقنازعة ، والزوابع ، والعبيدات ، والطالب ، وغامد الزنات .والسبع الأوائل من هذه القبائل هي قبائل الحضر ، والبقية الباقية هي قبائل البادية .

أما زهران فتجمع تحت لوائها ٢٤ قبيلة جميعهم من قبائل الحضر . فالقبائل التي تسكن منطقة السراة (المنطقة الجبلية) هي : بنو عام ، وبنو


نموذج لباب من أبواب المنازل القديمة المألوفة في مناطق غامد وزهران .


يكثر نمو أشجار العرعر والزيتون البري على جبال غامد وزهران وسفوحها .

بشير ، وبنو حسن ، وبنو بيضان ، و بلخزمر ، وبنو كنانة ، وبنوجندب ، وبنو جرير ، وبنو عدوان ، وبنو منهب ، ودوس العلي ، وبطفيل ، وقريش الحسن . والقبائل التي تسكن منطقة تهامة (أي منطقة الوديان) هي : بنو عمر العلي ، وبنو عمر العياش ، وآل سعد ، والاحلاق ، وبالأسود ، وبالمفضل ، وآل عبد الحميد ، والجبر بني سليم ، وأولاد سعدي ، وآل مقبل ، وآل سهلة .

التعليم في المنطقة

ان اقبال الطلاب على التعليم ومطالبة الأهلين بفتح المزيد من المدارس في المنطقة ، ولا سيما مدارس البنات ، يبشر بمستقبل تعليمي ناهض في المنطقة . ومديرية التعليم ، ورئاسة مدارس البنات تعملان ما وسعهما الجهد على تلبية هذه الطلبات ، وزيادة عدد المدارس في المنطقة . وفي كل سنة تجد عشرات المدارس تبنى أو تفتتح في قرى المنطقة الكبيرة ، وتجد الطلاب يقبلون عليها من القرى الصغيرة المجاورة ، حتى أن بعضهم يجشمون أنفسهم عناء المشي على الأقدام مسيرة ساعة أو أكثر للوصول الى المدرسة والعودة منها . ونتيجة لهذا الاقبال تضمنت المنطقة ٩٧ مدرسة ابتدائية وسبع مدارس متوسطة للبنين ، وثلاث مدارس ابتدائية للبنات ، وثلاثة معاهد علمية للبنين وعشر مدارس أهلية . وينتسب الى هذه المدارس حوالي ١٢ ألف طالب ، بينما يبلغ عدد المعلمين فيها نحو ٦٧٦ مدرسا من العرب السعوديين ، و ٢٣٢ مدرسا من أبناء البلاد العربية الشقيقة .

الزراعة

كل من يزور منطقة الباحة يلحظ مدى الاهتمام بالزراعة والتشجير . فعلى جانبي الطريق تبدو عشرات اللافتات التي تحمل العبارات التشجيعية لانشاء الغابات والمحافظة عليها . وهذي لعمري من مآثر وزارة الزراعة ، لأن التشجير يضفي على تلك المنطقة الجبلية نضرة وجمالا ، ويجعلها مصيف المنطقة الجنوبية ، لما تتمتع به من مناخ لطيف معتدل . وفي هذه الأحراج تبدو أشجار العرعر والعتم (الزيتون البري) بشكل ملحوظ ، وقد بوشر منذ بضع سنوات في دراسة وتنفيذ مشروع يرمي الى تطعيم أشجار العتم ، وجعلها أشجار زيتون مثمرة .

أما عن الزراعة المثمرة فتجد الأهلين ناشطين في احياء كل شبر تتوفر فيه المياه . وتجد المزارع العديدة الخصبة ترفل بثوبها الأخضر وتختال بما تحمله من أثمار ، لحسن تمهيد المزارعين للتربة وعنايتهم الفائقة التي تعودوا عليها . والمزارع اما تكون في المناطق السهلية المنبسطة حيث يستعمل الفلاحون آلات الزراعة المختلفة ، واما تكون على شكل « مساكب » على سفوح الجبال . وهناك تستخدم المحاريث التي تجرها الثيران . وتقدم وزارة الزراعة لهؤلاء المزارعين كل عون ومساعدة ممكنة ، بما في ذلك الارشاد والغراس

الزراعية المختلفة ، وتكافح الآفات بالمبيدات، وتؤجرهم الآلات الزراعية بأسعار مخفضة . كما أن بنك التسليف الزراعي يعطي المزارعين قروضا طويلة الأجل .

أما محاصيل المنطقة الزراعية ، فقسمان : محاصيل وادي تهامة الحارة ، وتشمل الموز ، والدخن ، والذرة . ومحاصيل جبل شدا الواقع في بطن تهامة ، وتشمل البن والذرة . واذا انتقلنا الى منطقة السراة الجبلية لقينا فيها زراعة الخضار ، والحبوب بأنواعها ، والحمضيات من برتقال « ويوسف أفندي » ، والزيتون ، ومختلف الفواكه الجبلية الصيفية من تفاح ، ولوز ، وخوخ ، ورمان ، ومشمش ، وصبير ، وتين ، وعنب . ومما يجدر ذكره أن عنب غامد ذو شهرة واسعة ، فهو ذو قشرة رقيقة وحلاوة طلية .

الثروة المعدنية

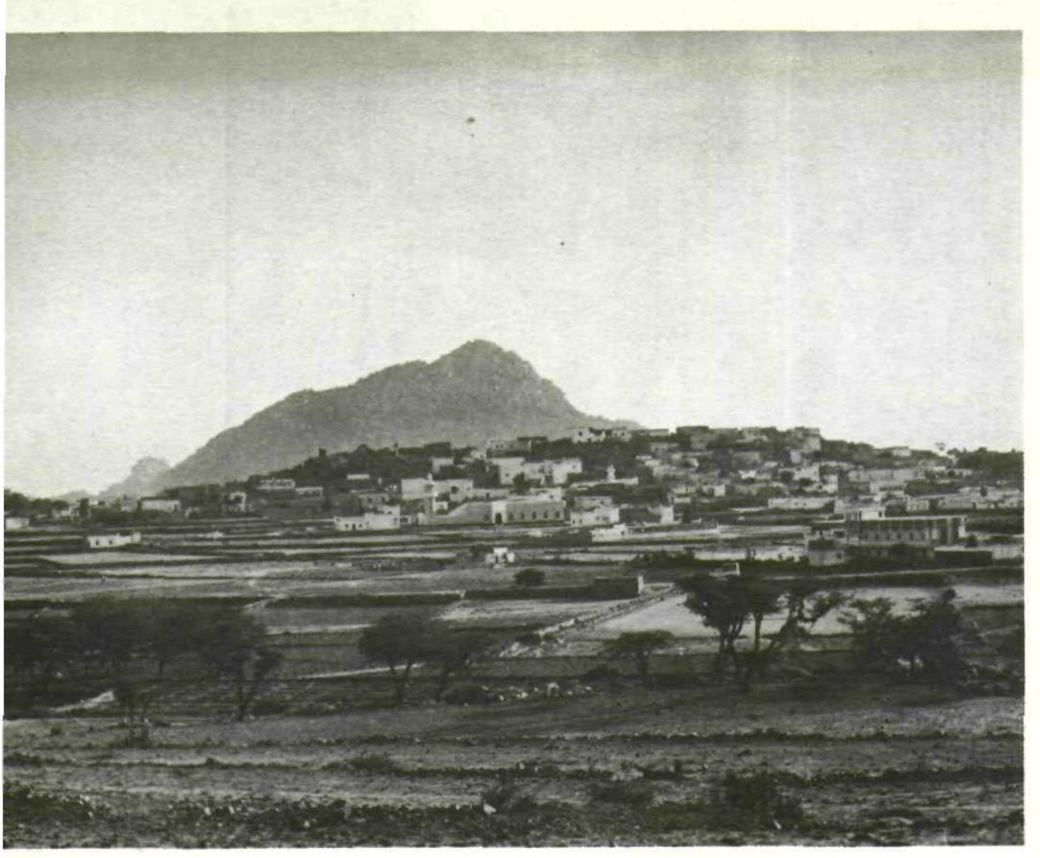
ليست بلاد غامد بلادا زراعية فحسب وانما تكمن في بطون جبالها ثروات معدنية كبيرة تبشر بمستقبل صناعي زاهر لهذه المنطقة . فقد بدأ التنقيب فيها بحثا عن الخامات المعدنية المختلفة ، وقد وجد فيها ، خامات الحديد الصلب ، والذهب ، والرصاص .

العناية الصحية

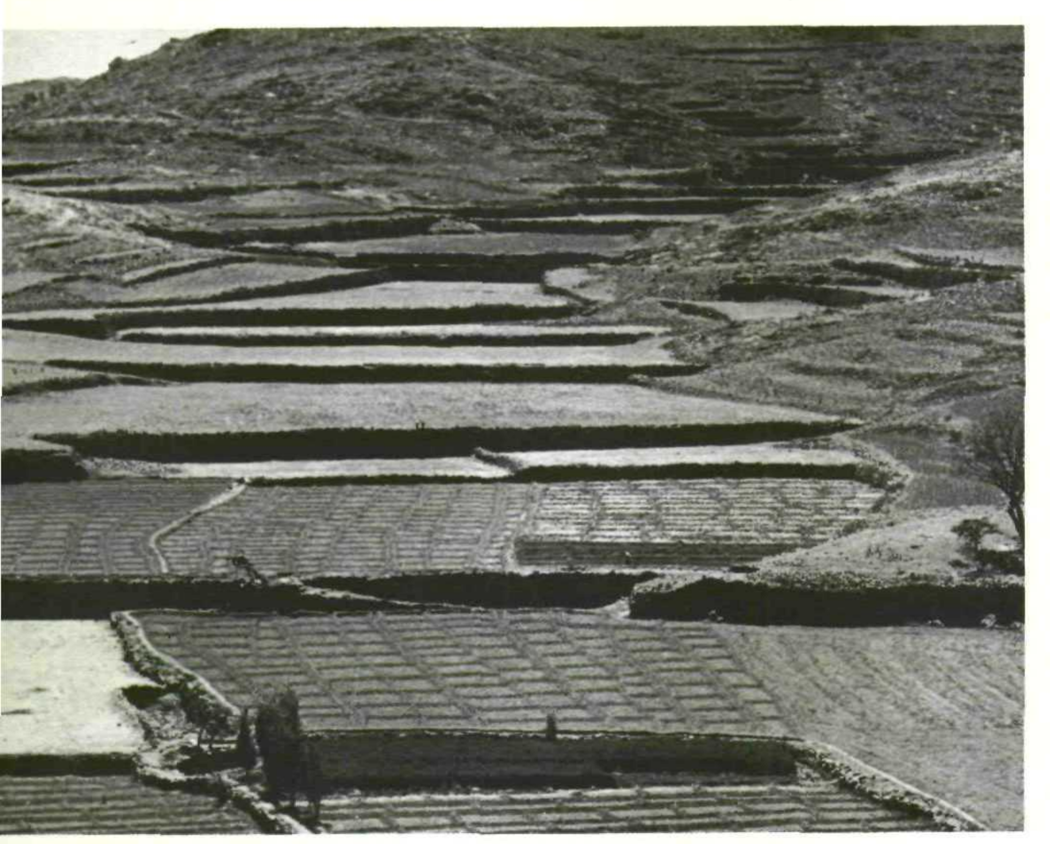
يوجد في المنطقة ستة مستوصفات ، واحدى عشرة وحدة صحية مزودة جميعها بالمعدات اللازمة وبالأدوية الضرورية ، وهي تقدم للمنطقة العناية الصحية والعقاقير الطبية .

المواصلات

هنالك مشروع قيد التنفيذ لربط المنطقة بطريق رئيسية مسفلتة تمتد من الطائف حتى جيزان مخترقة المنطقة ومارة بعدد كبير من المدن والقرى . وفي الوقت نفسه توجد في المنطقة مصلحة للطرق مزودة بالجرارات والمعدات الثقيلة ، ولديها مشاريع كثيرة تقوم بتحقيقها على مراحل . فالمرحلة الأولى يتم فيها شق طريق الى مقر كل قبيلة من القبائل . وفي المرحلة الثانية يشق طريق الى كل من القرى الرئيسية . والمرحلة الثالثة تشمل تعميم الطرق على جميع القرى . والمرحلة الرابعة تتضمن صيانة الطرق العامة المؤدية الى المنطقة .



منظر عام لبلدة الباحة التي يبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح البحر حوالي ٢٠٠٠ متر .

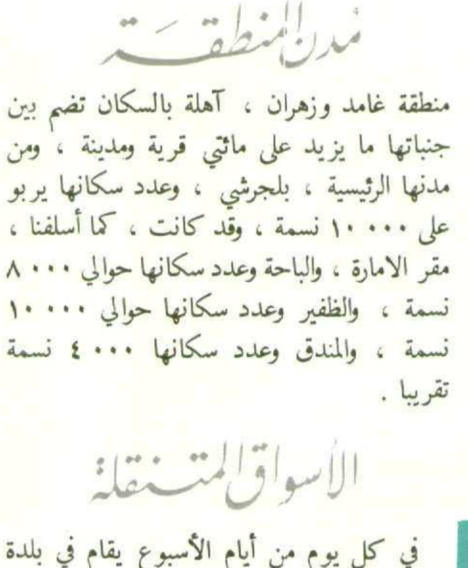


تنسق الحقول الزراعية على شكل « مساكب » في سفوح الجبال يسهل ريها .

« السواني » طريقة ما زالت متبعة لاستخراج المياه من الآبار .

تصوير : خليل أبو النصر

مدن المنطقة



منطقة غامد وزهران ، آهلة بالسكان تضم بين جنباتها ما يزيد على مائتي قرية ومدينة ، ومن مدنها الرئيسية ، بلجرشي ، وعدد سكانها يربو على ١٠٠٠٠ نسمة ، وقد كانت ، كما أسلفنا ، مقر الامارة ، والباحة وعدد سكانها حوالي ٨٠٠٠ نسمة ، والظفير وعدد سكانها حوالي ١٠٠٠٠ نسمة ، والمندق وعدد سكانها ٤٠٠٠ نسمة تقريبا .

الأسواق المتنقلة

في كل يوم من أيام الأسبوع يقام في بلدة أو أكثر من بلدان المنطقة سوق عام يفد اليها التجار من مختلف أنحاء المنطقة بما لديهم من أمتعة ومنتجات ، فتكون هذه الأسواق بمثابة وسيلة اجتماع وتفاهم وتآلف وتبادل تجاري بين مختلف قرى المنطقة ومدنها . وفي الوقت نفسه ، تمكن الأهلين من سكان هذه المنطقة المحدودة التجارة ، من شراء ما يحتاجون اليه طوال الأسبوع .

الآثار التاريخية فيها

لعل ما يثير دهشة الزائر الى منطقة غامد وزهران ، كثرة الآثار التاريخية التي تضمها ، من قلاع وحصون وأبراج . ففيها ما لا يقل عن عشرة آلاف قلعة وبرج منتشرة على معظم قنن جبالها وتلالها . ولدى سؤالي عنها لم أستطع أن أظفر بجواب قاطع ، وانما قيل انها تعود الى عمر القرية التي شيدت على جانبها ، والتي قد يرجع بعضها الى عهد الجاهلية . وقد بنى هذه القلاع أهل القرى أنفسهم لحمايتهم من غارات القبائل الأخرى ابان العهود السابقة . أما اليوم فقد أصبحت عبارة عن آثار تاريخية قيمة تجذب اهتمام علماء الآثار لدراستها .

ع . ع .



جامع أثري قديم في بلدة الباحة .